تأملات في الإيمان

١. الإيمان : نظرة عامة
٢. بناء الإيمان وموارده
٣. الإيمان بين الفطرة والمسؤولية
٤. تشغيل الإيمان
٥. الصلاة
٦. الصوم
٧. رحلة الحج
٨. الذكر
٩. زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

١ الإيمان: نظرة عامة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان: نظرة عامة

عند تدبر سلوكنا الاجتماعي ومنظومة القيم التي تحكم تفكيرنا تتضح لك إحدى أهم المشكلات التي تواجهنا اليوم على مستوى الفرد والجماعة والوطن والأمة هي مشكلة ترتيب الأولويات، ويظهر ذلك بجلاء في الخطاب الديني، وفي السلوك الاجتماعي، وفي القرارات الإدارية، وفي إنفاق الموارد على جميع المستويات.

ومن أبسط الأمثلة على ذلك فوضى الإنفاق عند الأفراد، فقد تمر بسيارتك على أحد المحالّ، وتشتري لأطفالك مثلجات بخمسين ريالاً دون مناقشة، ثم تمر على صيدلية لتشتري لهم فُرش أسنان، وتبحث عن أرخص الأنواع، وتجادل في سعر بضاعة مسؤولة عن صحة فم الإنسان وأسنانه ولثته، وقد تنفق في مناسبة عابرة لا داعي لها ألفي ريال، وتنام طول عمرك على مرتبة رخيصة الثمن تسبب لك تشوهات في الظهر وآلاماً في المفاصل.

وفي الجانب الديني، وهو الأهم نعاني كثيراً من هذه المسألة، بل أحياناً يرفض بعض الوعاظ مبدأ الأولويات من أساسه على الرغم من إيمانهم بوجود الفرض والواجب والسنة ووجود آيات أولى من آيات في سياقات معينة، وأنبياء أفضل من أنبياء، وهذا الموقف ينطلق من باب أن ليس في الدين قشور ولب، وينتهي الأمر إلى أفئدة محشوة بالمتون وشروح المتون وبتفاصيل التفاصيل، ونشرات تلاحق الإنسان في كل مكان، تفصِّل حالات سجود السهو، وتحليق الأصابع، والافتراش في التشهد، وأنواع الإسبال مع الوسائل الإيضاحية بالصور عند أبواب المساجد والمكاتب.

وعندما نذكر ذلك، فغنيٌّ عن القول: إن على كل مسلم واجباً بأن يحترم السنة المطهرة قولاً وفعلاً وتقريراً، ولكن - وهنا تكمن المشكلة - لا بد من أن نعرف أن في أذهاننا فراغاً محسوباً وحيزاً محدوداً إذا عظمنا عنده الصغائر والتفاصيل، فلن يتوافر فيه مكان للإدراك التلقائي[1] للمقاصد الكبرى للدين.

إن المعايشة الواعية للسيرة النبوية في عهدها المكي والمدني، مدرسة مستمرة لترتيب الأولويات. تأملوا نهي الرسول ﷺ عن كتابة الحديث النبوي، وعنايته العظيمة ﷺ بكتابة القرآن العظيم وحفظه بوصفه مؤشراً واضحاً على ترتيب الأولويات بين النص القرآني والحديث النبوي.

المحزن أننا لم نستطع فهم هذا التمييز العظيم بين القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل إن الدارس في كتب الأصول يعجب لطريقة استنباط الأحكام وقواعدها، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تقرير أن السنة قاضية على القرآن، بل إن بعض أصحاب النيات الحسنة، يستعملون مصطلحاً بدعيًّا، وذلك بالتعبير عن القرآن والسنة بـ (الوحيين)، وهو في نظري تطرف جاء رد فعل على القرآنيين الذين يزعمون كفاية النص القرآني، لكن عندما يرد نص قرآني قاطع في أمر من الأمور، فإن من الداعي للتساؤل لجوء بعض الفقهاء إلى تفريغه من معناه مستندين على بعض الأحاديث، متوسلين بتخصيص العام وتقييد المطلق، وما سواهما من قواعد وضعية.

وأوضح مثال على ذلك أننا نقرأ في القرآن العظيم هذا التوجيه الرباني قطعي الثبوت وقطعي الدلالة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. ومع ذلك مازال بعض المسلمين يقرأ الفاتحة، والإمام يقرأ في الصلاة الجهرية، استناداً إلى فتوى تحيل إلى حديث نبوي، ألا يحتاج هذا الأمر إلى إعادة نظر؟!

(١) نقصد به الإدراك اللاواعي بحسب تقسيم علماء النفس الذين قسموا عملية التعلم إلى أربع مراتب، هي: اللاشعور وعدم القدرة، ثم الشعور مع عدم القدرة، ثم الشعور والقدرة، ثم أعلى المراتب اللاشعور مع القدرة.

ونتذكر هنا أن الرسول ﷺ لم يكن يشجع على الأسئلة التفصيلية وكثرة الاستفتاءات، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**»، ويكفي أن نعلم إن الاستفتاء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ والسؤال بعمومه ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ قد ورد في القرآن الحكيم فقط في آيات محدودة لا تتجاوز خمس عشرة آية. يقول الدكتور خالد السلطان، مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

> «**إن كثرة الأسئلة والاستفسارات تؤثر في قدرة عقل الإنسان على فهم التصور العام للشيء، نتيجة الانغماس في التفاصيل. وإن الإسراف في السؤال يكرس ثقافة التبعية، ويؤثر في سلَّم الأولويات**».

ولعل كثيراً منا قد لاحظ أن بعض الشباب المبالغ في التفاصيل فقد الإحساس بالمقاصد العظمى للدين، وتاريخنا الماضي والحاضر مليء بالأمثلة.

وعندما نبحث هذا الأمر سنجد أن الخلل في ترتيب الأولويات عندنا يتضح في أجلى صوره في قضية الإيمان، فهذه القضية الأساس الكبرى لم تنل ما تستحقه في خطابنا الديني ومناهجنا المدرسية وتربيتنا، ومن ثم لم تأخذ مكانها في منظومة القيم، ولم تظهر على السلوك، ومن ثم لم نستفد من مردودها العظيم، وشَغلنا عنها في الجانب التعليمي ما يسمى مباحث العقيدة، حيث انشغل علماء العقيدة في التاريخ الإسلامي وبالذات المدافعين عما يعتقدونه التصور السليم للذات الإلهية، وأنفقوا جهدهم ووقتهم في جدل لا ينتهي مع من يسمونهم «الفرق الضالة» (يلاحظ هنا أن كل فرقة تعتقد أنها على الحق، وأن غيرها فرق ضالة قليلاً أو كثيراً).

ولأن مصادر الإنسان من وقت وجهد وقدرات عقلية محدودة، فقد قَّل إنتاجهم الفكري جداً في موضوع الأثر الذي يجب أن يحدثه الإيمان في الإنسان.

ومثال بسيط على ذلك أنه يعلم كل مطلع على كتب العقائد حجم الجدل الطويل الرهيب حول تأويل الصفات، حيث قسم الأمة، واستنزف طاقات العلماء، وشحن النفوس دون الوصول إلى نتيجة.

هل استفادت الأمة خلال قرون طويلة ومجلدات هائلة من هذا الجدل، أعتقد أن الجواب على النقيض، بل تشرذمت، وشحنت النفوس، وضاع الجهد، وفقد الطرفان التركيز على الغاية.

فإن كانت إحدى عجائزنا لا تستطيع أن تتصور أي شيء فوق المادة نهائيًّا وفهمت العلو والعرش والاستواء واليد والعين بما يستطيع إدراكها فهمه، ولكن إيمانها هذا يمنعها عن ارتكاب المحرمات، ويساعدها على فعل المندوبات، والالتزام بأهداب الشريعة، ويمنحها توكلاً، ويعطيها سكينة وهدوءاً عند المصائب والأقدار، فهل من المفيد أن نتجادل مع هذه العجوز عن مسائل طبيعة الوجود وتوحيد الأسماء والصفات؟

وفي المقابل إن كان أحد المفكرين أو علماء الفلك ينزه المولى - عز وجل - عن أي تجسيم أو تشبيه حتى في اللفظ، ويعرف أن الاتجاهات في الكون ليس لها معنى إطلاقاً، فالإصبع التي تشير إلى الأعلى في الرياض تشير إلى عكس الاتجاه في جنوب البرازيل، وثلث الليل الأخير مستمر لا ينقطع، فهو يحتاج إلى التأويل؛ ليحقق التوافق بين عقله وإيمانه، ولكن إيمانه بالله - عز وجل - بهذه الصورة أحدث المطلوب من تعظيم الرب ومحبة رسوله وفعل المأمورات وترك المحرمات وتقوى الله والجهاد في سبيله، فهل نقاتله على هذا التصور؟

عند استعراض أدبيات العقيدة في التراث الإسلامي، وحتى في المؤلفات الجديدة يحزن الإنسان كثيراً أن الأمة انشغلت عن الغاية بالوسيلة، وجعلت محل الخلاف طاغياً على محل الاتفاق.

نعود إلى قضيتنا الأساس، وهي بناء الإيمان الذي هو أولى أولويات الإنسان وسفينة نجاته، إن بناء الإيمان يشبه بناء منزل وسكناه وصيانته في هذه الحياة، وعلى قدر عزيمة الإنسان وعلى قدر جهاده سيحدد نوع المنزل الذي يسكنه، إن بإمكان المؤمن أن يعيش سعادة لا تتحقق لأي ساكن قصر على وجه الأرض، أمان ورضا واستقبال للأحداث والطوارئ بنفس رضية مستقرة ومواءمة مع الكون والنفس.

في تصوري أن من يعيش على هذه الأرض دون إيمان أشبه بمن يعيش دون منزل على المستوى المادي. تخيل إنساناً دون مأوى، لا بيت ولا كوخ، ولا حتى خيمة، وليس في منطقة خالية من البشر، بل هو في وسط الناس، أي حياة ستكون من نصيبه؟ برد ومطر أو حر وشمس وغبار ووحشة وابتذال... إلخ، لا أعتقد أن بالإمكان تصور مثل هذه الحياة.

قد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يساعد على بناء الإيمان وصيانته وعلى أقل تقدير، فحسبي أن يذكره بأهمية الموضوع، فيشرع يستخدم ما أعطاه الله من آليات وموارد (كون ـ عقل ـ وحي.. إلخ) في بناء إيمانه بشكل راسخ وصيانته على الدوام؛ حتى يستمتع بثمراته اليانعة.

تأمل:

تدبروا قول الرب - عز وجل - في سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

إذن المؤمن الحق هو مجموعة أعمال، وليس تصوراً مجرداً.

obeikandl.com

٢ بناء الإيمان وموارده

obeikandl.com

obeikandl.com

بناء الإيمان وموارده

تاريخ البشرية يظهر أن الإيمان بالخالق الملك المدبر الحي القيوم فطرة مغروسة في كل كائن بشري، فإنكار وجود الرب - عز وجل - هو الاستثناء في السلوك البشري، بل احتاج ذلك إلى مكابدة كبيرة من أهل الإلحاد وعناء ما بعده عناء، ولم تفلح حتى محاولات الإلحاد (الرسمي) التي تدعمها الدولة (كما في تجربة الاتحاد السوفيتي) في تحقيق أي نجاح لمشروع إنكار وجود الله، والمثير للبحث أن مسألة وجود الرب - عز وجل - لم تكن قضية القرآن الكبرى، بل يؤكد القرآن أن هذه القضية لم تكن موضع الخلاف الأهم بين البشر.

وفي اعتقادي أن هناك ثلاثة موارد رئيسة يستخدمها أي إنسان لبناء إيمانه، هي:

أ- الكون. ب- العقل. جـ- الوحي.

ولكل واحد منها وظيفة محدد، ولايستطيع أحدها أن يؤدي دوره دون الآخر، فإذا تلقى الوحي إنسان دون عقل فلا فائدة ترجى، والكون والعقل دون وحي قد يقودان إلى حياة بدائية مليئة بالخرافة، والوحي والعقل يحتاجان إلى ميدان "الكون" لاستنباط البراهين والممارسة العملية، وقد تكفل الوحي بتعريف البشر على الاسم الذي يدعون به هذا الرب الخالق وهو (الله) في الدين الخاتم، ومن ثم تعريفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ حتى يتمكنوا من تحقيق عبوديته في هذه الحياة، والعقل هو مناط التكليف والآلة التي يستخدمها الإنسان للاختيار بين البدائل، ويوفر الكون لمن تدبره أدلة لا حصر لها، تتضافر لتشهد على وجود خالق مدبر حي قيوم وعلى كمال شريعته وتحقيقها لمصالح البشرية العليا.

١-٢ الكون

يبدو أن مظاهر الكون من حول الإنسـان من لحظة وجوده على كوكب الأرض قد شـغلت تفكيره، واسـتفزت تأمله الطويل. فنظام الكون الذي نسـتطيع مشاهدته يدعـو إلى الإعجاب الكبير والدهشـة العظيمة، وقد بـدأت التأملات البشرية للكون في وقـت مـا قبل الحضارة، وتدل عليها الرسـوم والنقوش القديمة التي اكتشـفت في السنوات الأخيرة، ولكن أول ما وصلنا مكتوباً عن هذه التأملات الجادة كان التراث اليونـاني، ويعتقد أن «بطليموس»، هو أول من وضع تصوراً مكتوباً عن نظام الكون أودعه في كتابه «المجسـطي» الذي يحمل اسـمه العربي إلى اليـوم، وفي عالم بطليموس تكـون الأرض هـي مركز الكون، والشـمس والقمـر والنجوم تدور حولهـا، وتعزز المشـاهدة اليوميـة هذا التصـور، ومن ثم فقد ظـل مهيمناً على التفكـير البشري قرابة ألفي عام يدعمه اعتقاد خاطئ من الكنيسـة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون، وخلاف ذلك هو كفر وهرطقة.

ثم تسلّمت الحضارة العربية والإسلامية القيادة العلمية للعالم، ووفرت قاعدة عظيمة من التأملات والبحوث التي أعانت أوروبا على نهضتها الحديثة.

ومن داخل المؤسسـة الكنسـية نفسـها ظهر البولندي «كوبرنيكـوس» في القرن الخامس عشر ليقلب هذا المفهوم رأساً على عقب، ويفترض نظاماً تكون الشمس فيه هي المركز والأرض تدور حولها مع بقية الكواكب.

تسبب هذا الطرح في صراع رهيب في أوروبا، ولكنه كان إحدى الشرارات التي أشـعلت النهضة الأوروبية الحديثة، ليس فقط في أثره الفلكي، وإنما في أثره الفلسـفي العميـق، فـكان هذا التصور الجديد يقول: إن اعتقاد النـاس الطويل بأمر ما، ودلائل الحواس المباشرة لا يعني بالضرورة موافقة الحقيقة.

وتوالت الأرصاد والحسابات التي تؤيد تصور كوبرنيكوس، ومنها ترسخ فكر جديد يدعو إلى التثبت من المسلمات الوثوقية التي ربما تكون أبعد شيء عن الحقيقة.

وبعد ذلك بعقود قليلة وبالعقلية نفسها فاجأ «جاليليو» إيطاليا وأوروبا كلها بتصور جديد عن الحركة والسكون، فقد ظل العالم ألفي عام أسيراً لنظرة أرسطو التي كانت تقول: إن الأجسام تبقى ساكنة حتى تأتي قوة تؤثر فيها (تحركها)، وهي فكرة يدعمها الحس المباشر، وكانت هيبة أرسطو تمنع من توجيه النقد له، وهذه الهيبة لم تكن في أوروبا وحدها، بل كانت في العالم الإسلامي بشكل أكبر، فقد كان يسمى في المشرق الإسلامي المعلم الأول، أما في الحضارة الأندلسية، فقد قال فيه الفقيه والفيلسوف ابن رشد الحفيد كلاماً يخجل المرء من إيراده.

وفجأة قلب جاليليو الطاولة على أرسطو وبضربة عبقرية غيَّر جاليليو عبارة أرسطو إلى الآتي:

(تبقى الأجسام على حالها متحركة بانتظام أو ساكنة، حتى تأتي قوة تؤثر فيها) وعندما سأله المدهوشون من هذه الفكرة: (ما الذي يحرك الساكن؟ أجاب ما الذي يوقفه؟!).

قد يجد بعضنا صعوبة في إدراك الفرق بين عبارتي أرسطو وجاليليو، ولكن مؤرخي العلوم يعدّون التصور الجديد للحركة والسكون من أهم مسببات وثبة العلم الحديث.

دعم جاليليو نظريته، ببحوث، وتجارب كثيرة، ويوم وفاته ولد في إنجلترا، «إسحاق نيوتن» (١٦٤٢م) ليترجم فكر جاليليو بعبقرية فذة بما يسمى قوانين الحركة

التي تفسر نظام الحركة في الكون، وقد تنبأ بمواقع الكواكب وسرعاتها، واستطاع أن يحسب مواقع سقوط القذائف وحركة المركبات، وصاغ المعادلات الرياضية لهذه الحركة.

وقبل وفاة نيوتن بدأت تتوالى الدراسات والبحوث التي تشكك في تصوره لعلاقات الأجسام في الكون ودقة المعادلات، وخصوصاً من كل من «بيركلي» و«ليبنز» وهو في السبعين من عمره، فكتب هذا المقطع في نهاية كتابه العظيم (المبادئ):

(يتمجد اسم الله الأعظم الأبدي ذو البهاء المطلق، هو الأبدي اللانهائي القادر على كل شيء، العالم بكل شيء يصل وجوده الأبد بالأبد، وبقاؤه يدوم من العدم إلى العدم، حاكم على كل شيء، عالم بكل شيء كان أو سيكون هو ليس أبديًّا، وغير محدود، بل هو الأبدية واللاحدود، وهو ليس البقاء والوجود، بل هو الحاضر، وكل زمان، الباقي إلى الأبد، الحاضر في كل مكان وبوجوده الدائم في كل مكان ينشأ الزمان والمكان... الله لايكترث بحركة الأجسام، فلا تجد مقاومة من قدرة الله الحاضر في كل شيء).

هذه إذاً النتيجة التي وصل إليها إسحاق نيوتن أحد أعظم علماء الطبيعة على مر القرون، عندما شارفت حياته على النهاية، ووصلت حكمته وخبرته إلى أقصى مداها ونضجها.

توالت الضربات على نظرية نيوتن عن الحركة والجاذبية، وبخاصة بحوث الكهرومغناطيسية التي أبدعها فراداي وماكسويل، ولم تستطع النظرية تفسير بعض الظواهر الحاسمة في الطبيعة.

وانطلاقاً من إيمان عميق بجمال الكون قاد «آينشتاين» العلماء إلى النسبية الخاصة ثم العامة، ويصعب على أي إنسان غير متخصص أن يفهم أسرار النظريتين، ولكنه يمكن صياغة الرؤية الفلسفية لهما بأن العلاقة بين الأجزاء في الكون ليست علاقة قوة كما تصورها فيزياء نيوتن، وإنما تصميم هندسي فائق الجمال في أبعاد الزمكان (الزمان ــ المكان) وأن الزمان والمكان ليسا مطلقين، وإنما يعتمدان على موقع الراصد (نسبيان) وأن المادة والطاقة ليسا سوى وجهين لعملة واحدة. المهم أن تصميم الكون بدأ يظهر بشكل أجمل وأبسط مما كان عليه في عالم نيوتن.

والداعي للتأمل أنه بعد بحوث آينشتاين وعلماء عصره يمكن أن نرى أن الفارق بين عالمي بطليموس وكوبرنيكوس هو فرق في الاصطلاح، فالحركة المطلقة غير قابلة للرصد في هذا الكون ولا فرق حقيقي بين أن تقول: إن الكوكب «أ» يدور حول الكوكب «ب» أو العكس.

ومن المتوقع أن يظهر علماء يضيفون إلى نظرية آينشتاين، أو يعدلون أجزاء منها، أو ينسفون فرضياتها «وقد حدث ذلك فعلاً» ويطرحون تصوراً جديداً، يفسر الكون بطريقة أبسط وأفضل وأنفع.

إذاً، فالكون مخلوق من مدبر أعلى قادر حكيم حي قيوم، حارت العقول في كشف أسرار بديع صنعه، غير أنها تصل إلى نتيجة حاسمة هي الإيمان بوجوده وحكمته عزوجل.

عندما نتحدث عن بناء الإيمان عن طريق تدبر الكون، فإن المثال الأعلى والقدوة لكل إنسان على هذه الأرض هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

يقص علينا القرآن العظيم طريقة إبراهيم في معرفة ربه بتدبره للكون من حوله. وسواء كان هذا التدبر على سبيل المحاجَّة والإيضاح لقومه أم كان على سبيل البحث عن الحقيقة، فقد توصل عليه السلام (أو أثبت) نتيجة قطعية هي أن ما يغيب (أو يأفل) بحسب التعبير القرآني لا يستحق أن يكون إلهاً.

وبذلك، فإن الخليل عليه السلام هو أبو المؤمنين في كل زمان ومكان، حيث حنف أي مـال عن الـشرك إلى الإيمان والتوحيد، ونقل التصور البشري للإله من التشـخيص إلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تأمـل، يمتـدح القرآن الكريـم حنيفية إبراهيـم عليه السلام، ويصفه بأنـه كان حنيفاً، وأصـل الحنف هو حدب السـاق، ألا يثير الدهشـة أن علماء الفيزيـاء الآن وبفتح من آينشتاين قد وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن الكون كله أحدب.

إلى أين يقود هذا الحدب؟

obeikandl.com

٢-٢ العقل

سئل أعرابي: بِمَ عرفت ربك؟

فقال: بنقضه للعزائم.

لاحظ هذا الأعرابي بفطرته السليمة أن عزائم الخلق تجتمع على أمر ما، ولا يستطيعون إدراكه، بحيث تنقض عزائمهم، فاستنتج عقله وجود إرادة عليا وقوة عظمى مهيمنة على إرادة الخلق.

وقد تضافرت شواهد العلم الحديث على أدلة لا تنتهي (باستخدام العقل والكون) على وجود الرب العظيم - عز وجل -، وهناك قائمة طويلة من الكتب هذا هدفها، يمكن لمن يرون تدعيم إيمانه أن يستفيد منها.

إن إنكار وجود الله يتطلب هوى غالباً، ويضرب د. علي عزت بيجوفيتش مثالاً على ذلك، فيقول:

> «إن علماء الآثار عندما يعثرون على تحفة فنية مطمورة تبدأ أسئلتهم عن العصر الذي عملت فيه، ومن أبدعها، وكيف حفظت إلى هذا التاريخ، إلى آخر هذه الأسئلة، أما عندما يعثر على جمجمة بشرية بديعة الصنع هائلة الأسرار، فإن الإجابة تأتي هكذا: «إن الطبيعة خلقتها» ثم يتساءل رحمه الله: أليس في إنكار الإنسان لوجود الله هوى بيِّن؟!».

ومثله ذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - إلى ضرب المثل بالمصباح الكهربائي، إذ يقول:

«إن الناس تحفظ اسم مخترع المصباح الكهربائي وصانعه الأول، وتقيم له التكريم تلو التكريم، أما الشمس التي تشرق على كل الكون لتنيره دون حاجة إلى صيانة أو تبديل، فنادراً ما نتفكر في مبدعها عزوجل».

جفري لانغ:

يتبع المغلوب دين الغالب، هذه فكرة أثارها ابن خلدون، وقد تأتي بصيغة أعم بأن المغلوب يتبع ثقافة الغالب، ومنذ خمسة قرون وكفة الصراع على هذه الأرض تميل لمصلحة الغرب المادي النصراني، ومنذ قرن انتصر الغرب انتصاراً حاسماً، وهيمن على مجريات الحياة بشكل قد لا يكون مسبوقاً، أما في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد انفرد تماماً بقيادة البشرية.

وأما المسلمون فهم الآن في تخلف رهيب في جميع مناحي حياتهم السياسية والاقتصادية والعلمية، بل حتى في منظومة القيم الجمعية، غير أن المتأمل لحال التحول في الأديان يدهشه هذا الكم الكبير من أعلام الغرب وبسطائهم الذين يشهرون إسلامهم.

وقد اخترت مثالاً واحداً هو الدكتور جفري لانغ الأمريكي الأصل والولادة والمنشأ، وهو ليس حالة فردية، بل تيار عام لا تنقطع روافده.

وقد ألف الدكتور جفري لانغ كتاباً يستعرض فيه طريقه إلى الإسلام أسماه (struggling to surrender) ترجمه الدكتور منذر العبسي تحت عنوان: «الصراع من أجل الإيمان»، وقد يكون العنوان الأقرب إلى الترجمة الصحيحة هو: «الصراع من أجل التسليم»، ولا يخفى على من يعرف اللغة الإنجليزية جمال العنوان الذي ينم ظاهره عن التناقض، فكيف يصارع الإنسان من أجل أن يستسلم؟

والدكتور جفري لانغ أستاذ الرياضيات بذل مجهوداً كبيراً في البحث عن الحقيقة، حتى قرر اعتناق الإسلام، ويقول عن القرآن الذي كان السبب في إسلامه ما نصه:

«القرآن في رأي كثير من المسلمين واجه تحدي الغرب، وارتفع فوقه وإن القرآن هو القوة الدافعة وراء الصحوة الإسلامية العالمية، ولا يزال القرآن نحو بليون مؤمن هو البيان الأمثل لفضل الله على البشر والحكمة العليا وجمال التعبير الأسمى».

ثم يستشهد بكلمة لمحمد أسد، وهو كما تعلمون مسلم نمساوي تحول عن اليهودية إلى الإسلام:

«إنه كلمة الله».

من أجمل ما في كتاب الدكتور جفري لانغ شجاعته في مواجهة شبهات تُثار عن حياة الرسول ﷺ وعن الحديث النبوي وعن المرأة في الإسلام، بمعنى أن إسلامه لم يكن بادي رأي، بل عن تروٍّ ودراسة.

وأمثال الدكتور جفري لانغ كثيرون جداً، بل إن موكب مؤمني الغرب لم ينقطع على الرغم من حملات التشويه التي يقودها متعصبون، وما يلقونه من دعم من الجهات ذات المصالح الاقتصادية والسياسية، يعضد لها آلة إعلامية رهيبة مؤثرة، إضافة إلى ما يوفره جهلة المسلمين وغلاتهم من فرص للنيل من هذا الدين والتشكيك فيه.

حتى رحلة الحج في صورته الراهنة، كما يعلم أي إنسان أدى مناسك الحج مليئة بالصعوبات التي ستفتح أبواب الشيطان أمام أي مسلم جديد، ولكننا نجد أن مسلمي الغرب رجالاً ونساءً يرجعون من حجهم أقوى إيماناً وأشد تسليماً، من جراء تعاملهم الفكري المعمق مع أسرار الحج وغاياته.

إن مسـألة تحول غربيين كثر إلى الدين الإسـلامي مسـألة جديرة بالتبصر، فهذا الديـن ليـس عادة شرقيـة أو نادياً للمتعـة أو رياضة روحية، فالاسـتحقاقات المترتبة عـلى اعتناقه كبيرة جداً، بل تنطوي على تغيير شـامل في حياة الإنسـان، وتعيد ترتيب أولوياتـه وإدارة وقتـه، وتعيد تنظيم علاقاته، وتتطلب هـذه الخطوة الكبرى (اعتناق الدين الإسـلامي) تضحيات جسـيمة لا يقـدم عليها إلا من عرف الحـق، وإلا فإننا نعلـم جميعـاً أن العالم الغـربي يبحث كثيراً عن أديان الشـعوب الأخـرى ومعتقداتها، ونسمع عن بعض من أصبح بوذياً أو كنفوشيوسياً أو غيره.

يتسـاءل برنارد لويس، وهو أحد أكبر المسـتشرقين في هذا القرن مقرراً أن شـيئاً ما في الثقافة الإسـلامية يغرس في نفوس معتنقي الإسـلام اعتزازاً وثقة بالتفوق على الآخريـن، وقـد أصاب هنا كبد الحقيقة، غـير أنه يحار في الأسـباب، ونحن نعتقد أن سـبب هذا الشـعور هو موافقة الحق والفطرة؛ لأنه لا يوجـد أي شيء آخر يبعث على الاستعلاء بحدوده المقبولة مثل اتباع الحق بدعم من الفطرة.

ديكارت:

يعتقـد مالـك بن نبي المفكر الجزائري أن ديكارت هو أحد أكبر مؤسـسي الفكر الأوروبي الحديث، وهناك شـبه إجماع على أن مكانة ديكارت بوصفه مؤسسـاً للعقل الأوروبي أو أحد رواد تشـكيل العقلية الأوروبية الحديثة لا يعدلها مكانة، وقد شـغل ديكارت نفسـه في بداية حياته بقانون الشـك، إذ بدأ شـاكًّا في وجوده، ثم نهج طريقاً رياضيًّا ليثبت أنه موجود، وأطلق عبارته المدوية:

«أنا أفكر إذاً أنا موجود».

التي غالباً ما تفهم خطأً، بأن التفكير هو غاية الوجود، في حين مقصود ديكارت هـو أن التفكير برهان على الوجود، وبعد أن أثبت وجود نفسـه، وأن وجوده حقيقة، وليـس وهمـاً انطلق إلى إثبـات وجود الله -عز وجل- وبدأ يبرهـن على ذلك ببراهين متعددة في كتابه مبادئ الفلسـفة، وهـذه البراهين ترتكز في معظمها على فكرة واجب

الوجود المشهورة عند المتكلمين الإسلاميين، غير أن ديكارت قد أورد عدداً كبيراً من البراهين على وجود الرب -عز وجل- وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن فلسفة ديكارت، وفي سلسلة نوابغ الفكر الغربي ألف الدكتور «نجيب بلدي» كتاباً عن ديكارت نشرته دار المعارف بمصر.

ومن ثم، فإن كل الطرق التي سلكتها البشرية، سواء بالفطرة المباشرة أو العقلية العلمية أو التأملات الصوفية أو التبصر الفلسفي قد أدت بالجميع إلى نتيجة واحدة، وهي وجود الرب -عز وجل- الحي القيوم ذي الكمال المطلق.

النية:

تتوارث الثقافات البشرية مسلَّمة تقول:

إن أصحاب النيات الحسنة ينجحون في الوصول إلى أهدافهم، هذه المسلَّمة لم تأتِ من فراغ، وإنما أصّلتها ممارسة وتجارب وشواهد كثيرة، ولو كانت حكراً على ثقافة معينة أو شعب بعينه لقلنا: قد تكون وهماً، لكنها قاسم مشترك بين شعوب الأرض، وما من كتاب يتحدث عن تطوير الذات إلا يعرج على أهمية صلاح النية.

وهل ينجح ذوو النيات الحسنة لأن هناك انسجاماً بين ما يظهرونه وبرامجهم الذهنية؟ هذا ممكن!

ولكنه يمكن الاستفادة من هذه الحقيقة (التي أصبحت مسلَّمة لدى شعوب الأرض) في تعزيز الإيمان بالله -عز وجل-.

إن النية قد تكون أحد مصادر تعزيز الإيمان، تدبر هذه الحقيقة، يستثمر شخصان المصادرنفسها (مواهب، مال، جهد) للوصول إلى نتائج معينة يوفق أحدهما بشكل كبير، ويخفق الآخر، والفرق بينهما كان في النيات فقط، ألا يدل هذا على وجود فاعل أعظم، عليم خبير؟

إن تدبر أثر النية لا يقود فقط إلى بذل الجهد في إصلاحها، وإنما أيضاً يعزز الإيمان.

■ ٢-٣ القرآن

القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يمكن للعقل البشري استخدامه لبناء مشروع إيمانه وصيانته، وهذه أمثلة لبعض التأملات الجديرة بالتدبر:

• **إجماع حول القرآن:**

في أمة تختلف على كل شيء، وخصوصاً في أمور الدين! كيف تم الاتفاق على هذا الكتاب من أوله إلى آخره بنفس ترتيب السور، وترتيب الآيات؟ ألا يثير ذلك دهشتنا؟ إن أي مسلم يؤدي الصلاة في أي مسجد أو بقعة من بقاع المعمورة إسلامية كانت أو غير إسلامية يقرأ هذا الكتاب، ولا يجد فيه ما يزيد أو ينقص عما يقرؤه أي مسلم آخر في أي مكان كان. إن أي متأمل في هذه الحقيقة الكبرى ستتملكه حيرة عظيمة، خصوصاً في أمة أمية كالأمة العربية لم يتوافر لديها صناعة إنتاج الكتب أو السجلات، ولكن جواب الدهشة، والحيرة يأتي من القرآن نفسه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ سبحان الله العظيم، حيث استخدم صحابة رسول الله ﷺ لهذه المهمة، والله غالب على أمره، ولعل السنة النبوية في اختلاف رواياتها وانتشار الوضع فيها واختلاف الفرق الإسلامية حولها ما يؤكد تميز القرآن وحده بالحفظ الإلهي. وبالمناسبة، فإن الحديث عن وجود مصاحف أخرى عند بعض الفرق الإسلامية مختلفة عن المصحف الذي بين أيدينا الآن هو محض افتراء لا أساس له من الصحة، ويوجد متطرفون عند كل الفرق يدعون أن الفرقة الأخرى تزعم وجود نقص أو زيادة في القرآن، بمعنى أن فكرة وجود مصحف مختلف اخترعت للنيل من الآخر، وليس لدعوى امتلاك الحقيقة.

• هامان:

نقرأ في القرآن عن رجل يسمى «هامان» ويظهر من القصص القرآني أنه كان أحد مساعدي فرعون مصر في أثناء بعثة موسى عليه السلام، وحتى نصل إلى سبب إدراجه ضمن سياق هذا الكتاب دعونا نستعرض بعض الحقائق:

أولاً: لم يرد ذكر لهامان في أي كتاب سماوي أو أثر تاريخي معروف.

ثانياً: اللغة الهيروغليفية ظلت طلاسم مجهولة، حتى القرن التاسع عشر عندما تمكن عالم المصريات الفرنسي «شامبليون» من فك رموزها عند عثوره على ما يسمى حجر رشيد، وهو حجر يحمل نصين: الأعلى منهما مكتوب باللغة اليونانية وتحته ترجمة باللغة الهيروغليفية (الحجر الأصلي محفوظ بالمتحف البريطاني، وشاهدت نسخة منه في المتحف المصري) وبمقابلة النصين وبإجراء دراسات معمقة على الآثار المصرية تمكن شامبليون من تطوير ما يمكن تسميته أبجدية هيروغليفية، ساعدت علماء المصريات على بناء سجل تاريخي دقيق للأسر الفرعونية الحاكمة، ووجدوا التشكيلات الإدارية لكل حاكم فرعوني، وعند تفحص التشكيل الوزاري لفرعون مصر في أثناء البعثة الموسوية ظهر لهم اسم هامان وزيراً للقلاع والإنشاءات، وقد ذكر الله العظيم: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ فمن أعلم محمداً ﷺ باسم هامان ووظيفته، التفكير المنطقي السديد يقود قطعاً إلى الإجابة التي تنصر الإيمان بالله، وتدعم أركانه.

• مراد هوفمان:

مراد هوفمان المسلم الألماني الذي كان دبلوماسيًّا لألمانيا في الثمانينيات في المغرب العربي أثارت دهشته قدرة المسلمين من غير العرب على حفظ

القرآن، أليس محقاً في ذلك؟ تصور أنك تقرأ كتاباً من ست مئة صفحة بلغة غريبة، أي صعوبة تقف أمامك؟ فكيف بحفظ ما قرأت؟ الأمر قريب من المستحيل. أما في الحالة القرآنية فآلاف مؤلفة من المسلمين من الفرس والهنود والملايو والبربر والقبائل الإفريقية يحفظونه عن ظهر قلب دون أن يستطيعوا قراءة سطر واحد من كتاب آخر في اللغة العربية، ألا يثير هذا الأمر دهشة العقول؟! ويعمق الإيمان، الوعد المكتوب في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

• موريس بوكاي:

أنجز هذا الطبيب الفرنسي رحلة شاقة من البحث العلمي الرصين في الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

قارن من خلالها نصوص هذه الكتب المتعلقة بتاريخ الكون والإنسان والأحداث التاريخية المهمة، وبعد رحلة علمية رائعة اتضح لهذا الباحث الفرق الجوهري بين القرآن العظيم المحفوظ من التدخل البشري والكتب السماوية الأخرى التي لم تتشرف بالحفظ الإلهي لحكمة أرادها منزلها عز وجل.
يختم هذا العالم بحثه الشائق بخاتمة جميلة اخترت للقارئ الكريم نهايتها:

«لا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًّا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث

إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي، عقيمة حقًّا المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

خاتمة جميلة لكتاب رائع وبحث علمي رصين من عقلية فلسفية اشتغلت خارج الإطار الإسلامي، ولكن المنهجية العلمية المتسمة بقدر عالٍ من التجرد والموضوعية قادته إلى تلك النتيجة الباهرة.

• الإعجاز العلمي:

وقع هذا الموضوع ضحية لطرفين: إما مغالين، يتعسفون كل حقيقة علمية؛ ليبحثوا لها عن أصل في القرآن، وجفاة لا يقبلون بحث هذا الموضوع مطلقاً، ولكن المتأمل قد يجد طريقاً في الوسط، حيث تواجهه آيات واضحة عن نظريات علمية أصبحت في حكم الحقائق، والآيات دلالاتها قاطعة، وفي اعتقادي أن أوضح مثال على ذلك هو أطوار خلق الإنسان التي تتكرر الإشارة إليها في آيات كثيرة وبشكل متسق على الترتيب الآتي:

طين ← نطفة ← علقة ← مضغة ← عظام ← لحم ← خلقاً آخر

وهذه هي المراحل التي أوجدها البحث العلمي الراهن، بل أصبحت بحكم الحقائق، تأتي في القرآن أول مرة في التاريخ البشري، وكشفها علميًّا لم يتحقق إلا في القرن العشرين، هذه واحدة من حالات متعددة تقوم الآن هيئة علمية مستقلة بالتحقق منها ونشرها.

وفي رأيي أنه يجب التعامل مع هذه الأمور بحذر شديد؛ حتى لا نندفع خلف تنظير علمي نضعه حقيقة لا يرقى إليها شـك، ونتعسف تفسير آية؛ لتتماشى معها، ثم يثبت فيما بعد خلاف النظرية، مع أن القرآن العظيم ليس في الواقع في حاجة إلى مثل هذه الاستدلالات، فهو مطلق وغير مفتقر إلى البرهنة.

القرآن والنقد:

كثيراً ما نسمع أن قداسة القرآن في نفوس المؤمنين به تمنعهم من نقده وملاحظة تاريخيته وتناقضاته عـلى حد تعبيرهم، الجزء الأول من هذه العبارة صحيح، فللقرآن في نفوس المؤمنين به قداسة لاتعادلها قداسة، أما النقد والتحليل فقد تصدت له مجموعة من المستشرقين وغيرهم، واستثمروا جهوداً غير عادية، فما النتيجة التي خرجوا بها؟

لـن أسـتنزف وقت القارئ أو أجـرح ذائقته في اسـتعراض بعض مقولاتهم، وإنما سـأكتفي بعبارة للمفكر المغربي المشهور الدكتور «محمد عابد الجابري»، وهو من تعلمون موسـوعيته واطلاعه على مثـل تلك الجهود، وقد نشر هذه المقالة في مجلة المجلة في العدد ١٤٦٢ وتاريخ ١٧-٢٣/ ٢/ ٢٠٠٨م بعنوان: (القرآن والنقد) وهذا نص العبارة:

«حاول بعض المسـتشرقين العثـور في القرآن على ما يشـبه المعطيات والمتغـيرات التي جعلت النقد التاريخـي لكل من التـوراة والإنجيل مـبرراً، بل ضرورياً، فلم يخرجوا بنتيجة تذكر».

٢-٤ الرسول

شخصية الرسول ﷺ أحد أهم مصادر الإيمان بالله -عزوجل- وبرسالة الإسلام الخالدة الخاتمة.

فحياته الكريمة معين لاينضب للباحثين على صدق بلاغه، وفي كتب السير ما يغني عن أي استطراد هنا، وقد تسببت بعض الأحداث في حياته ﷺ وحتى زمننا هذا في إسلام كثير من الناس، نتذكر هنا تلك المستشرقة التي قرأت أن الرسول ﷺ عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أمضى بقية حياته الشريفة دون أي نوع من الحراسة، وهو حق، فلم يكن هناك حراسة على حجرات الرسول ﷺ في المدينة، فكان أن استنتجت أنه يمكن للإنسان أن يكذب على كل الناس إلا على نفسه ما يقطع بصدق رسالته، تذكروا أن حياة الرسول ﷺ لم يكن بها أسرار إطلاقاً، فقد نقلت لنا تفاصيل التفاصيل عن حياته الشريفة، وهناك ملمح جميل سمعته من الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- عن مفكر هندي يقول:

«إن أكثر ما أثار دهشته هو سيرة الرسول ﷺ في سكنه في حجرات بالمسجد يمر عليه الناس خمس مرات في اليوم والليلة على الأقل، فالزعماء والأغنياء في هذه الأرض يحرصون على أن يكون لهم قصور بعيدة عن العمران تتوافر فيها الخصوصية؛ حتى يستمتع بملذات الدنيا بعيداً عن الناس، وهو أمر درجت عليه الأمم في ماضيها وحاضرها».

نتذكر هنا أن البيوت الملاصقة للمساجد في أحيائنا الآن تقل أسعارها أليس كذلك؟!

obeikandl.com

كثير من شانئيه ﷺ قد استغلوا سيرته للنيل من صدق رسالته، وقد قرأت، وتدبرت كثيراً من الكتابات عن هذا الأمر، وهي تركز على الغزوات وقتل رجال بني قريظة والسبي والغنائم وتعدد الزوجات، وخصوصاً الزواج من عائشة رضي الله عنها في سن مبكرة، أو الزواج من زينب رضي الله عنها.

سأطرح على القارئ الكريم ثلاثة تفسيرات محتملة لهذه المواقف:

التفسير الأول:

أن المنتقد (الشانئ) يقرأ أحداث ما قبل ألف وأربع مئة سنة، بعقلية اليوم وشرائحه وأعرافه، والمنطق الحديث والفكر والفلسفة الغربية الآن تركز على تاريخية الأحداث والتصرفات، وضرورة إسقاطها على عصرها، وقراءتها في سياقها الزمني، غير أنهم ينسون أو يتناسون هذا الأمر عند دراستهم سيرة رسول الإسلام ﷺ.

التفسير الثاني:

يقرأ الغربيون سيرة الرسول ﷺ وفي مرجعيتهم الفكرية صورة ذهنية عن سيرة المسيح عليه السلام (الحقيقية أو الميثيولوجية) والمعلوم أن المسيح عليه السلام جاء لغاية محددة وهدف واضح هو تصحيح الانحراف في بني إسرائيل، وجاءت ولادته عليه السلام صدمة روحية هائلة في مجتمع غرق في ماديته، حتى حولوا المعبد إلى مغارة لصوص بحسب النص الإنجيلي، ولا بد أن يوضح المدافعون عن سيرة نبي الإسلام ﷺ أن حياته ورسالته تختلف تماماً عن رسالة أخيه المسيح عليه السلام فقد جاء محمد بن عبدالله ﷺ ليختم رسالات السماء، وليطرح مثالاً للكمال البشري في جميع مناحي الحياة.

ما الفائدة لو جاء الرسول الخاتم، ولم يقاتل، ولم تكن له رغبة في النساء (مثل يحيى أو المسيح عليهما السلام) فلم يتزوج، ولم يطلق؟! كيف تستفيد البشرية منه بوصفه قدوة؟

جاء محمد ﷺ ليكون «دراما بشرية متكاملة»، حزن وسرور، ربح وخسارة، حصار وحرب، زواج وطلاق، قضاء ودهاء سياسي، خطط حربية، نصر وهزيمة، أصحاب أوفياء وقرابة وآل، وشانئون محاربون ومنافقون، خريطة متكاملة لحياة الإنسان على هذه الأرض.

كثير من الكتابات الغربية الناقدة تغيّب هذه المسألة المهمة، وتفترض أن يكون النبي مسالماً دفاعيًّا فقط مثالاً للأخلاق السلبية متنازلاً عن كل حقوقه.

التفسير الثالث:

كثير من الغربيين فلاسفة ومفكرين قديماً وحديثاً لم يغفروا لأمتنا فوزها بالاختيار لحمل رسالة الله الأخيرة لبني الإنسان، فلم يتحملوا وصول هذا الشرف لأمة أمية تعيش في الصحراء.

الدارس لموقف الغرب النصراني من الدين الإسلامي في أول لحظات الالتحام يلاحظ موقفاً شديد العدائية من قبل رجالات الدين على وجه الخصوص، وفي نظري إن أحد أهم الاعتداءات التي تمت على الحقيقة في التاريخ البشري حدثت عندما ترجم القساوسة في أوروبا لفظ الجلالة «الله» كما ينطق في اللغة العربية «Allah»، ثم راحوا يوهمون دهماء أوروبا بأن المسلمين «العرب» يعبدون إلهاً اسمه الله غير رب موسى وعيسى عليهما السلام، ومعلوم أن السواد الأعظم من جيوش الأوروبيين في الحملات الصليبية تم تهييجها؛ لتخليص الأماكن المقدسة من الكفار الوثنيين، الذين هم بالطبع العرب المسلمون، وهذا لايعني استبعاداً أو التقليل من تأثير الأبعاد الاقتصادية والسياسية في تلك الحملات الصليبية البربرية.

وإحـدى أهـم ظواهـر هـذه العدائية تغييـب الإرث المحمدي، بـل الثقافة العربيـة والإسـلامية عن الاستشـهاد بها أو الاسـتفادة من حكمها عـبر التاريخ، إن جميع كتب تطوير الذات وعلم النفس تستشـهد بالحكمة الإنسـانية من الشرق والغـرب، فتجـد في أي كتـاب مـن كتب تطويـر الـذات في المكتبة الغربيـة أقوالاً لبوذا وكنفوشـيوس وزرادشت، بل حتى إنه يتم الاستشهاد ببعض تراث القبائل الإفريقية، غير أنك لا تكاد تجد أي استشهاد بالموروث العربي والإسلامي، لا من القـرآن الكريـم، ولا من الحديث النبـوي، ولا من حكماء المسـلمين، وكأن هناك تحسساً مفرطاً وتغييباً تامًّا لهذا الموروث.

وعـلى الرغم من كل هذا، فهناك كثير من نصـارى أوروبا والمشرق من أهل الإنصـاف والعدل الذيـن قالوا كلمة الحق في نبينا محمـد ﷺ وقد أنجزت بعض البحوث والكتب التي توثق شهاداتهم في حق المصطفى ﷺ.

يقول «مايكل هارت»:

«إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشـكل أسـمى وأبرز في كلا المسـتويين الديني والدنيوي. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير لـه للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعـدّ أعظم شـخصية ذات تأثـير في تاريخ البشرية».

محمد الرسول ومحمد الإنسان:

روي عـن النبـي ﷺ أنه كان يقول في الصباح والمسـاء: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم،**

حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين»، هذا واحد من مجموعة من الأحاديث التي يسهل فهمها عندما نفترض أن النبي محمداً ﷺ يتصرف، ويتحدث أحياناً بوصفه محمداً الإنسان، وحينها يشهد في بعض الأحيان لمحمد النبي بالرسالة، ويخبر صحابته بأنهم أعلم بأمور دنياهم، ويغير موقعه في مواجهة بدر بناء على مشورة.

ربما يؤدي التمييز بين محمد الإنسان ومحمد النبي ﷺ إلى بعض القراءات الجديدة لسيرته ﷺ وعلاقته بآل بيته وصحابته.

obeikandl.com

obeikandl.com

٣
الإيمان بين الفطرة والمسؤولية

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان بين الفطرة والمسؤولية

الإيمان فطرة مغروسة في كل إنسان تحتاج إلى عقل وتدبر في النفس والكون، ثم تكفل الوحي بتجليتها وتثبيتها وإيضاح مطلوباتها وثمراتها.

فهو إذاً مسؤولية كبرى فردية خالصة لكل عاقل مكلف، غير أن الرب -عز وجل- قد وضع في كل إنسان خميرة الإيمان عند خلقه، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، تأمل قول الرب عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾. وتقوم هذه الخميرة التي تشبه البادي في صناعة الأطعمة، بدور الخميرة الإيمانية القابلة للنمو، ولا يستبعد أن يكتشف العلماء لا حقاً شيئاً يشبه الجينات الإيمانية في التركيبات البيولوجية للإنسان.

إن بناء الإيمان مسؤولية فردية لا يجوز فيها التقليد ولا التبعية، فعلى كل إنسان عاقل مكلف أن يتدبر في نفسه والكون من حوله، ويستقبل رسالة محمد ﷺ حالما تصله لبناء إيمانه.

إن بناء الإيمان عملية مستمرة، فليست المسألة قراراً يتخذ أو مهمة تنجز، بل حياة تعاش.

إن البناء الإيماني يتعرض باستمرار لمحاولات التخريب والتقويض، ويتطلب حراسة وحذراً وصيانة مستمرة، والجميل في الأمر أنه كلما زاد الإيمان زادت الحصانة، وقل الجهد المبذول للصيانة والحراسة، ويزودنا الإيمان الإسلامي

بآلية مهمة لزيادة الإيمان، وهي الأعمال الصالحة، حيث إن المزيد من الأعمال الصالحة يقوي الإيمان، والعكس هنا صحيح.

يلاحظ القارئ أن الحديث عن بناء الإيمان هنا قد دمج بين الإيمان بوجود الرب -عز وجل- ووحدانيته والإيمان برسالة محمد ﷺ ولعل المفهومين منذ بعث محمد ﷺ لا ينفكان، فقد أصبح من المتعذر النظر إلى إنسان غير مصدق برسالة محمد ﷺ بصفته إنساناً مؤمناً، وقد حفلت الكتب بمحاولة معرفة الفروق بين الإيمان والإسلام، ويعدُّ الكثير أن حديث جبريل عليه السلام فيصل في هذا الباب، في حين يرى البعض أن الإيمان والإسلام مفهومان إن اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، وقد حاول محمد شحرور في مشروعه المعروف أن يضع تمييزاً بين الإسلام والإيمان، غير أن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، وما يعتقده كاتب هذه السطور هو أن: **الشهادتين غير قابلتين للتجزئة.**

٤ تشغيل الإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

تشغيل الإيمان

تمر بالإنسان أحداث في حياته يكون فيها إيمانه محل اختبار حقيقي، وترتقي هذه الابتلاءات لدرجة أن أولي العزم من الرسل فقط هم الذين يتجاوزونها.

تأمل موقف أولي العزم من الرسل عليهم السلام:

إبراهيم عليه السلام - رد جبريل، وهو في المنجنيق.

موسى عليه السلام - ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

محمد ﷺ - ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ عندما وطئت أقدام جوالة قريش فوهة غار ثور.

وتأمل موقف هؤلاء الرسل عليهم السلام:

لوط - ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ عندما داهم منزله الفساق من قومه بحضور الملائكة.

يوسف عليه السلام - ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ عندما خرج أحد السجينين معه.

زكريا عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ عندما بشرته الملائكة بيحيى.

وللإمام جعفر الصادق رضي الله عنه حديث مهم عن تشغيل الإيمان لدفع القلق والخوف استنباطاً من القرآن العظيم، حيث يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في أحد مباحث تفسير الاستعاذة:

obeikandl.com

«والحق سبحانه وتعالى، يريدك عندما تقرأ القرآن، أن تصفي نفسك له سبحانه وتعالى، وهو جل جلاله يعلم مكايد الشيطان ومداخله إلى النفس البشرية، وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الإيمانية، فيأتي القرآن على فطرة فسدت، فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية، ولكن إذا استعذت بالله، فقد استعذت بخالق، فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك، ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحاً لصفاءات الإرسال سامعاً لكلام الله؛ لأن الله هو الذي يتكلم، فالقرآن ليس كلام القارئ له، ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم بعد تصنيفه لمفزعات الحياة عند الإنسان، هي الخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة:

«عجبت لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾. فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ وعجبت لمن ابتلي بالضر، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فقد سمعت الله بعده يقول ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾. وعجبت لمن ابتلي بالغم

كيف لم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وعجبت لمن أُضير، ولم يفزع لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾.

وأنت مادمت في معية خالقك لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبداً، والتوكل على الله -عز وجل- في دفع الضر وجلب النفع هو في الحقيقة خلاصة الإيمان، تأمل: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾.

وكأن كل الهدى هو في التوكل على الله تعالى، وفي قصة بقرة بني إسرائيل ملحظ إيماني عظيم، فالبقرة أصلاً كانت لرجل صالح من بني إسرائيل حضرته الوفاة، وله ولد واحد لم يبلغ الرشد، وليس له أحد يثق فيه يودع هذه البقرة عنده، فاستشار زوجته المؤمنة، فأشارت عليه أن يستودعها الله -عز وجل- ويرسلها في الفلاة، فتوكل على الله وفعل، ثم إنه توفي، وبعد مدة وعندما بلغ الابن سن الرشد سأل أمه إن كان أبوه قد ترك شيئاً؟ فتذكرت البقرة فقال: أنى لي أن أجدها؟ فقالت: إن أباك قد توكل، فاسترعاها، فتوكل واطلبها ففعل، وذهب إلى الفلاة يبحث عنها فوجدها، وعندما دخل بها المدينة إذا أوصافها تنطبق تماماً على أوصاف البقرة المذكورة لبنى إسرائيل في سورة البقرة؛ لكشف جريمة القتل، وفاوضوه على شرائها، وكان يستشير والدته، فأدركت حكمة الله في هذه البقرة، وقالت له: لا تبعها عليهم إلا بملء جلدها ذهباً، ففعل وقبلوا. إذا استطاع الإنسان أن يبني إيماناً قويًّا راسخاً، فلا بد أن يوظفه في إدارة شؤون حياته؛ دفعاً للضر وجلباً للنفع وراحة لقلبه وسكينة في النفس، وعطاء لمجتمعه وتضحية له.

obeikandl.com

٥
الصلاة
تجديد عقد الإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الصلاة.. تجديد عقد الإيمان

قال النبي ﷺ: (**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**).

يتعرض البناء الإيماني لمواجهات مستمرة يتبناها الشيطان، فهذه وظيفته في الحياة، ويبدو أن من طبيعة الحياة الدنيا أن يظل هذا الصراع والمواجهة قائمة، وربما أن وجوده شرط لاستدامة الحياة.

وظيفة الصلاة الكبرى من وجهة نظري هي تجديد عقد الإيمان (صيانته) وذكر الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ومن يتدبر سورة الفاتحة فسيفهم المقصود بشكل واضح. ولنتدبر هذا الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: (**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**).

الذي يظهر أن الإنسان في صلاته يرتفع - بفضل الله ومنته - ليصبح طرفاً في عقد الإيمان مع ربه -عز وجل- لدرجة أن الرب سبحانه يتفضل بتوزيع بنود العقد بالتساوي، كما تفعل لو ذهبت لتوقيع عقد مهم من التجمل والاستعداد، فإن الرب

تبارك وتعالى يرشدك حتى للهيئة التي يجب أن تكون عليها حال ذهابك لتجديد عقد الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يتوقف قليلاً بعد كل آية، ويقول: أسمع جواب ربي.

تأمل الآية الكريمة التي قسمها الله تعالى بين ذاته العلية وبين عبده: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على العبد أن يخلص العبادة -تقديم إياك للتخصيص والتجريد- ومن الرب العون، وهنا خاطرة لطيفة من الشيخ محمد متولي الشعراوي عن اقتران هذين (البندين) فيقول رحمه الله:

«إن في ذلك إشارة إلى أن تخصيص الرب بالعبودية سيثير صراعاً في الكون يتطلب معونة الله على تجاوزه».

لاحظ حساسية المواجهة وصعوبتها مع الشيطان، فهي تتطلب أن يجدد عقد الإيمان خمس مرات في اليوم والليلة وثلاث مرات على الأقل في حالة السفر والحاجة.

سأضع تحت نظر القارئ ثلاثة اقتباسات عن الصلاة كتبها ثلاثة مسلمين أوروبيين:

الأول: مسلم أوروبي بالولادة، ومن أسرة مسلمة عريقة هو علي عزت بيجوفتش رئيس دولة البوسنة السابق رحمه الله.

والثاني: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن اليهودية هو محمد أسد رحمه الله.

والثالث: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن النصرانية هو مراد هوفمان وفقه الله.

- علي عزت بيجوفتش في كتابه (**الإسلام بين الشرق والغرب**):

«الصلاة ليست مجرد تعبير عن موقف الإسلام، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم، فالصلاة تعلن أمرين:

أولهـما، أنـه يوجـد هدفـان إنسـانيان أساسـيان. وثانيهـما، أن هذيـن الهدفـين - عـلى الرغـم مـن انفصالهـما منطقيًّـا - يمكـن توحيدهمـا في الحياة الإنسـانية، حيث إنه لا صلاة من دون طهارة ولا جهـود روحيـة مـن دون جهود ماديـة واجتماعية تصاحبهـا. إن الصـلاة أكمـل تصويـر لمـا نطلق عليه «الوحدة ثنائية القطب» في الإسـلام. ونظراً لمـا في الصلاة من بسـاطة، فإنها قـد اختزلت هذه الخاصيـة إلى تعبـير تجريـدي، وأصبحـت بذلك المعادلة أو «الشيفرة» الإسلامية.

الصـلاة في الإسـلام باطلة مـن دون وضوء، بينما في الديـن المجـرد يمكـن أداء الصلاة مـع وجود (القذارة المقدسة) التي عرفتها بعض نظم الرهبنة في كل من المسـيحية والهندوسية، فالرهبان الذين يتجنبـون النظافة يشـعرون شـعوراً دينيًّـا أصيلاً أن إغفـال البـدن - بل الإهمال المتعمـد لنظافته - يقـوي العنصر الروحي في الصـلاة. وينطلق هذا المنطق من افتراض أن الصلاة من حيث المبدأ التي قامت عليه، ستكون صلاة أصدق إذا «تخلصت» مـن أي إضافة أو عناية بالبدن. فكلما قل لحضور البدني زاد التأكيد على الروحي.

يشـكل الوضـوء والحـركات في الصـلاة الجانب العقلي فيها، ووجود هذا الجانب لا يجعل الصلاة

قاصرة على جانبها الروحي المجرد، وإنما يضيف إليها النظام والصحة معاً، فهي ليست تأملاً صوفيًّا فحسب، بل نشاطاً عمليًّا أيضاً».

- محمد أسد في كتابه (الطريق إلى الإسلام):

يتحدث محمد أسد عن عيشه في بيت أحد أقاربه في مدينة القدس، عام ١٩٢٢م وفي معرض حديثه أشار إلى جار له في البيت، يطلق عليه لقب "الحاجي" له فناء كان يؤجر فيه الحمير لحمل الأثقال، فقال:

«وكان يجمعهم «أي الجار» مرات عدة في النهار للصلاة، وكانوا يؤدونها في الخلاء إذا لم يكن المطر منهمراً بغزارة: كانوا يقفون جميعاً في صف طويل واحد، وكان هو إمامهم. كانوا كالجنود في دقة حركاتهم - ذلك أنهم كانوا ينحنون معاً في اتجاه مكة، ثم ينهضون ثانية ليركعوا من ثم، وتلمس جباههم الأرض، كانوا يتبعون كلمات قائدهم الخافتة، وكان يقف بين الركوع والسجود حافي القدمين على سجادته المعدة للصلاة، مغمض العينين، مكتوف الذراعين فوق صدره، محركاً شفتيه دونما صوت، وشارداً في استغراق عميق: لقد كان في مكنتك أن ترى أنه كان يصلي بروحه كلها. والحق أنه قد أزعجني أن أرى مثل تلك الصلاة العميقة مقترنة بحركات جسمانية آلية، فسألت

«الحاجي» ذات يوم، وكان يفهم الإنجليزية قليلاً: «هـل تعتقـد حقًّـا أن الله ينتظر منـك أن تظهر له احترامـك بتكرار الركوع والسـجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسـه، وأن يصلي إلى الله بقلبه؟ لِمَ حركات جسمك هذه كلها؟».

ولم أكـد أنطق بهذه الكلمات حتى شـعرت بالندم وتبكيـت الضمـير. ذلـك أننـي لم أكن أنـوي أن أجرح شعور الشـيخ الديني. ولكن «الحاجي» لم يبدُ عليـه قط أمارات الاسـتياء، لقد فتر فمه عن ابتسامة، وأجاب:

-«بـأي طريقة أخـرى، إذاً تحـب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسـد والروح معـاً؟ وإذا كان هذا كذلك أفـلا يجب أن يصلي الإنسـان بجسـده، كما يصلي بروحه؟ اسمع، سأفهمك لِمَ نصلي نحن المسلمين كـما نصـلي؟ إننا نـولي وجوهنا نحـو الكعبة بيت الله الحـرام في مكة، مدركين أن المسـلمين كلهم، حيثـما كانـوا مولـون وجوههـم نحوهـا، وأننـا كجسـم واحد، وأن الله هو محـور تفكيرنا جمعياً، نحـن نقـف أولاً مسـتقيمين، ونقـرأ شـيئاً مـن القـرآن الكريـم، ذاكرين أنه كلمـة الله أنزلها على الإنسـان؛ كيما يكـون مسـتقيماً رصينـاً في الحياة. ثـم نقـول: الله أكـبر، مذكرين أنفسـنا بأنه ما من أحد يسـتحق أن يعبد إلا هو، ونركـع لأننا نَعدّه

فوق كل شيء، ونسبح بعزته ومجده وبعد ذلك نسجد على جباهنا؛ لأننا نشعر بأننا لسنا تجاهه إلا من العدم والتراب، وأنه هو الذي خلقنا، وهو ربنا الأعلى، نرفع وجوهنا عن الأرض، ونبقى جالسين، داعين إليه أن يغفر ذنوبنا، وأن يتغمدنا برحمته، ويهدينا الصراط المستقيم، ويهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض، ونلمس التراب بجباهنا تجاه عزة الواحد الأحد وعظمته. وبعد ذلك نستوي جالسين، وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته، كما صلى على الأنبياء من قبله، وأن يبارك أيضاً وجميع من يتبعون سواء السبيل، ونسأله أن يهب لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وفي النهاية ندير رؤوسنا إلى اليمين والشمال قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وبذلك نحيي كل من كانوا من الصالحين، حيثما كانوا، هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علم أتباعه الصلاة في جميع الأزمنة والعصور؛ وذلك كيما يسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين - وهذا هو معنى «الإسلام» - ويطمئنوا إليه وإلى مصيرهم.

obeikandl.com

- مراد هوفمان في كتابة رحلة إلى مكة (ص٥٧):

«ربـما يمكن القول: إنني كنت قريباً من الإسـلام بأفـكاري قبـل أن أشـهر إسـلامي عـام ١٩٨٠م بنطق الشـهادتين متطهـراً، كما ينبغـي وإن لم أكن مهتمًّـا حتى ذلـك الحـين بواجباتـه ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلماً من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكني لم أكن كذلك بعد من الناحيـة العملية، وهذا على وجـه اليقين ما يتحتم أن يتغـير الآن جذريًّـا، فلا ينبغي أن أكون مسـلماً في تفكـيري فقـط، وإنما لا بـد أن أصير مسـلماً في سلوكي. إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي بوصفي مسـلماً حديث عهد بالإسلام في الخمسينيات من العمر أن أتعلم صلاة الإسـلام، وليـس من الـضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسـب الآلي ليـدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسـألة اتصال.. مـا أصلح فنون الاتصال للاتصـال بـه؟ مـن المؤكد، عـلى أي حـال، أنه لا شيء يعرض إسـلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه.. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنـصر المحـوري في حياة كل من يعـي، ويدرك معنـى مايقولـه عنـد مـا يقول: إنـه يؤمـن بالله.. وبناءً على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من

وجهة نظري، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون أن تكون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفيًّا أو في الكتابة إليها ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طول اليوم، ليس محبًّا لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقًّا المعنى الحقيقي لوجود الله، فستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه إلى الله كثيراً.. وبذلك، فقد يصير ما يردده المسلم كثيراً، وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. حقيقة واقعة. كنت حتى في تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية.. ومن ثم، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص.. وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة والركوع والسجود والجلوس على الأرض مستنداً على القدم اليسرى، ورفع الذراعين واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سرًّا مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى

> المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم بوصفه مسلماً دون أن يكون كذلك».

ومن أجمل ما قرأت عن الدلالات الرمزية في الصلاة ما كتبه أحد منسوبي الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية في مجلة الحرس الوطني تحت عنوان: خواطر صائم، وهو الملازم أول (ولعله الآن في رتبة أعلى) الحبابي بن مبارك الحبابي:

> «الصلاة لا تأتي في وقت واحد على مكان واحد، بجميع فروضها، بل تمر على جميع مناطق العالم متعاقبة، ومتسلسلة، وفي ذلك التعاقب والترتيب يحيا العالم، ويتجدد. ووقت الصلاة له دورة متعاقبة، تغطي العالم وتوفيه حقه بالتوازن والاكتمال. فهي تمر على يابسه وبحاره، من شرقه لغربه، وفي ليله ونهاره، تتدرج التدرج المحكم الموزون. فلا يمر وقت إلا في بلد أذان أو صلاة، وكأن الصلاة بهذه الحالة موجة تشق طريقها العريض مبحرة تنهض كل موطن تمّره، وترفع جناح كل قطاع تغمره. حتى إذا اكتملت هذه الدورة، بدأت من جديد، على النهج نفسه، لتعيد الكرة على العالم مرة أخرى. وهذه الدورة (الموجة) لا يعقبها دمار ولا خراب، بل يعقبها أجر وثواب إن شاء الله. فهي تبدأ بالأذان، وتقتفي بالتهليل والاطمئنان. وهي موجة النجاة. فالسعيد من وافق هذه الموجة

وكان له منها نصيب. والخاسر من فاته الركب، ولم يكن لداعي الله مجيباً. إن للمصلين في توافدهم على المسجد إذا حان وقت الصلاة، واصطفافهم الصف، واتجاههم الاتجاه الواحد، لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو بصير.

بل لو تمعنا كيف أنهم يلتمّون بعضهم إلى بعض، فتشتبك الأكتاف، وتتوحد النيات، ويتوحد الإمام، ليؤتم به... بعدها ترتفع الأيدي، وتعلن الألسن التكبير: «الله أكبر». ثم تضم الأيدي على الصدور، رابطة أحزمة الأمان، لرحلة الإيمان، التي تحلق في الأكوان، خشوعاً واطمئناناً. رحلة يبدأ فيها الإمام بقراءة أم الكتاب، التي لا تصح صلاة مسلم إلا بقراءتها، وبها يحمد الرب، ويمجَّد، ويعظم، والمأمومون من خلف الإمام يتابعون، ويتأملون، ويرجون من الله ما يرجون، حتى إذا أتى آخر السورة وكل تأهب، لتتوحد الكلمة، ويوحد الصوت، ويقولون «آمين»، وكأن الطيور، التي ضمت أجنحتها على الصدور، آنست ربيع قلوبها فغردت، وتحركت أشجانها، فأنشدت كلمتها الصغيرة «آمين» التي ترجو منها عطاء رب العالمين العظيم. وهي كلمة تنبض بها قلوبهم، وتنشدها ألسنتهم، وتخرجها آمالهم. إنها لعبرة كلمة (آمين)، هي تسمع من المصلين،

بـين الفـترة والحـين، وهـي كلمـة قلناهـا، فهـل وعيناها، وأديناها بخشـوع وإخلاص، لنحصل على رضا رب الناس وقبوله؟»

الشيخ محمد متولي الشعراوي يمثل الصلاة بصنعة تعرض على صانعها، فيقول:

«إن الإنسـان (صنعة الله عز وجل) تعرض خمس مرات يوميًّا على صانعها (الخالق عز وجل) فمن يؤدي الصلاة حق أدائها لا بد أن تستقيم حياته».

و الجديـر بالملاحظـة أن الإنسـان في أثنـاء صلاتـه نهي عـن التشـبه بالحيوانات في مختلـف الصـور: نقـر الغـراب، إقعـاء الكلـب، تلفـت الثعلـب، بـروك البعـير، افتراش السبع.

لا شيء مطلقـاً يفعـل فعـل الصلاة في إعلاء شـأن الإنسـان، في كتاب (**نهوض التفكير**) فطن المفكر الإسلامي د. عبدالكريم بكار في سياق مختلف إلى حقيقة مفارقة الحيوانية وعلاقتها بتعميق الإنسانية، فقال:

«كلما تقدم الإنسان بإنسانيته فارق الحيوانية».

obeikandl.com

٦ الصوم شاحن وكابح

obeikandl.com

obeikandl.com

الصوم.. شاحن وكابح

في شـهر رجب ١٤٢٦هـ زارني رجل أعمال كبير من أثرياء العالم؛ لإنجاز عمل مهـم في إحـدى مدن القصيم، وبعـد الاتفاق على خطة معالجة الموضـوع، طلبت منه تحديد موعد لاحق خلال أسـبوعين؛ لمناقشـة ما تم إنجازه، فاعتذر بأن جدول أعماله في شـعبان لا يسمح بذلك بسبب أن مديري قطاعاته المتعددة ينهكونه في هذا الشهر؛ لعلمهم أنه لا يسـتجيب خلال رمضان لطلـب الاجتماعات، حيث يخصص في ذلك الشهر وقتاً أكبر للعبادة.

وقـد لاحظت خـلال ثلاثين عامـاً من العمل في قطـاع البلديـات أن أصحاب المشروعات والأعمال يخفّ شحّهم وحرصهم في هذا الشهر عن غيره.

وعلى صعيد مشـابه عانت إحـدى قريباتي صداعاً عنيفاً متصلاً أسـابيع عدّة، لم تفلح معه أدوية الصداع التقليدية، وهذا دعانا إلى طلب مشورة طبية من مركز متقدم، فتوجهنا إلى مدينة الرياض، وراجعنا استشـارية سـعودية، وبعد الاسـتماع للشـكوى وإجراء بعض الفحوص الروتينية طمأنتنا، وقالت: أولويتنا الأولى هي كسر هذه الدوامة (breaking the cycle) ثـم وصفـت لنـا علاجـاً مختلفـاً تمامـاً عـن علاجـات الصداع التقليدية، غرضه فقط كسر هذا الداء المستمر.

هاتان الحادثتان ذكّرتاني بشهر رمضان، فبعد مغادرتنا هذه العيادة، وبعد نجاح خطة علاج هذه الدكتورة، ولله الحمد بدأت أستحضر دورة الحياة وضرورة كسرها، كلما هلَّ علينا شـهر رمضان، إنه يشـبه الدواء الطبيعي الرائع للذي يدور بلهف حول شهواته الدنيا.

والحقيقـة أنه ليس في الإسـلام أمر ينهى عن العمل في شـهر رمضان أو التقليل منه، بل إن حوادث كبرى للأمة وانتصارات حاسـمة تمَّت في هذا الشهر، ولكن المهم أن نفرق بين أعمال عظيمة قصد بها وجه الله تعالى والنفع العام وأعمال ذات نفع فردي يرسخها الشح.

أعتقد أن إحدى وظائف شـهر رمضان الجلية هـي تهدئة الاندفاع البشري نحو المطالب الدنيوية، إنه يشـبه الكابح (الفرامل) في السـيارة، فعندما تزيد سرعة السيارة عـن السرعـة الآمنة لا بد من كابح يعيدها إلى السـير بأمان، وهذا أحد الأدوار المهمة التـي يعالجهـا هذا الشـهر العظيـم كل عـام، إضافة إلى كبـح الشـهوات ذات الطابع البيولوجـي في الإنسـان، وهي مسـألة واضحـة في الصوم، ولكن الملاحـظ هو ذلك الهدوء النفسي وانخفاض حدة السعار المادي الذي يفسد حياة الناس.

في كل عام يضغط رمضان كوابحه على إيقاع الحياة؛ ليعيد توجيهها نحو أهدافها السامية دون أن يحرم عمارة الأرض من نفع الإنسان.

رمضـان منارة لإعادة توجيـه دفة قارب النجاة، إنه علامـة مرجعية واضحة في طريق الحياة تؤكد إعادة الحسابات والبحث عن الاتجاه الصحيح.

وضعـت الحضـارة الغربية منذ نجـاح حركة الإصـلاح الديني البروتسـتانتي، وما أعقب ذلك من نجاح كبير للرأسـمالية، الإنتاج بوصفه قيمة عليا وهدفاً أسـمى، وأصبح مرجعاً للإنسان؛ ليقيس به نجاحه وإنجازاته.

ثم بدأ حكماء الغرب يراجعون هذا التوجه، وقد ظهرت كتابات كثيرة تحث كل إنسان على مراجعة مستمرة لأولوياته في الحياة وعدم التركيز على الحياة المهنية مثلاً أو جمـع المـال أو تحصيل مركز اجتماعي مرموق، وقد كتب في هذا الموضوع عدد كبير من الكتب، ربما يكون أحد أشـهرها كتاب سـتيفن كوفي «الأهم أولاً» وهو يحكي بشكل

تراجيدي قاسٍ عن عدد كبير من الرجال والنساء في الغرب الذين ركزوا على حياتهم المهنية، ونسوا الجوانب الأخرى في الحياة، ثم أفاقوا في وقت متأخر.

نعـود إلى رمضان، إنـه دورة تدريبية لضبـط الاتجاه وتقويـة الأهداف وتخفيف سرعـة إيقاع أحـداث الحياة؛ حتـى يمكن التعرف إليهـا ومراجعتها، فربـما أن الحياة إذا كانت تسـير بأسرع مما نسـتطيع إدراكه، فهي تفقدنا القـدرة على فهمها وتصحيح الانحراف في الاتجاه، وكما قال حكيم لأحد الباحثين عن السعادة:

«تمهل قليلاً؛ إن السعادة تحاول اللحاق بك».

وقـد بالـغ بعـض أفـراد مجتمعنـا بتقمص طريقـة الحيـاة الغربيـة الموجهة نحو الإنجـازات والنتائـج والنمـو بطريقة لاتـوازن فيها، فاشـتبهت حالنـا بطريقة الحياة الغربية، كمن وُضِع على سرج فرس جموح دون أن يسلم اللجام، وهو لا يجيد ركوب الخيل، والنتيجة قلق وخوف وسعي لاهث دون أي اتجاه، وربما سقوط قاتل.

رمضان يسلم لجام الفرس للفارس؛ ليعيد توجيه الحياة، ويضبط سرعة إيقاعها.

obeikandl.com

٧ رحلة الحج

obeikandl.com

obeikandl.com

رحلة الحج

الحيثية الأساس للقيام بجميع التكاليف الشرعية الإسلامية هي: الإيمان بالله والالتزام بأوامره ونواهيه، وقد فطن الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- إلى أن خطاب التكاليف في القرآن غالباً ما يأتي بفعل محذوف الفاعل، مثل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

ما يوحي بأن هذا التكليف ناتج عن عقد الإيمان، وليس له معنى في ظل غياب الإيمان.

فمعلوم أن غير المؤمن غير مكلف، ومع ذلك فإن التكاليف الشرعية في الدين الإسلامي لها حِكَم بالغة الوضوح ومناقبها الدنيوية ظاهرة والصلاة والزكاة والصيام أوضح مثال.

ولكن كثيراً من دلالات وحكم الحج والعمرة مازالت مجالاً واسعاً للبحث والتأمل، فعند بعض غير المسلمين هي غير مفهومة إطلاقاً، بل تطرق بعض الغربيين إلى اعتقاد أنها إرث وثني.

وعندما سئل بعض علماء الأمة عن حكمة الطواف مثلاً، كان الجواب أن الطواف فحص للإيمان، حيث يطلب من المؤمن أن يقوم بعمل يصعب عليه فهم الحكمة منه، وإنما هو امتثال لأمر الله -عز وجل- وهذا جواب رائع، وينطبق ذلك على معظم مناسك الحج، حيث إن المؤمن يقبِّل حجراً، ويرجم آخر لا يبعد عنه سوى مسافة قليلة.

غير أن من واجب المؤمن أن يطيل النظر والتدبر والتفكر في كون الله -عز وجل- ونواميسه، وكذلك في أوامره ونواهيه؛ لعله يفهم بعض أسرار العبادات الشرعية دون أن يؤثر ذلك في رضاه وامتثاله لأوامر ربه.

استغرقت مدة طويلة في تفكير عميق حول الدلالات الرمزية في الحج والعمرة، وسأضع هذا الاجتهاد تحت نظر القراء الأعزاء، فقد يكون في بعضه فائدة.

تنقسم مخلوقات الله من حيث التكليف إلى قسمين رئيسين: مخلوقات اختارت ألا تختار، وإنسان اختار أن يختار، يقول الرب عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. فقد أدركت جميع المخلوقات بفطرة الله التي فطرها عليها، الفرق الكبير بين التحمل والأداء، فقد تصدر وعداً، وتعجز عن تنفيذه، وقد تحتمل أمانة، ثم تقعد همتك عن إنجازها، أما الإنسان فقد تصدى للأمانة، واختار أن يكون مختاراً لحكمة أرادها المولى -عز وجل- وعلى هذا الأساس نحن نعرف أن جميع مخلوقات الله في هذا الكون تسير وفق قوانين دقيقة منتظمة، فالشمس والقمر والكواكب تطوف حول بعضها في مواعيد دقيقة جدًّا تسبح بحمد ربها، ولا ترتكب أي معصية، فليس لها إرادة أو قدرة على ذلك إلا بإذن ربها في حالات استثنائية، فلم يسبق للشمس أن تأخرت عن الشروق في موعدها المحدد، سواء على بلاد مؤمنة مطيعة أو كافرة فاجرة. أما الإنسان فقد وهب إرادة الاختيار، وبهذا يرتقي عندما يطيع ربه، ويعيش وفق منهجه إلى مرتبة لا يرتقي إليها أي من مخلوقات الله؛ لأنه عمل ذلك بإرادته التي منحها الله له، فقد خلق الإنسان قادراً على الطاعة وعلى المعصية وفق مشيئة الله تعالى.

من يتدبر رحلة الحج من بدايتها يكاد يرى فيها إعلاناً من الإنسان وعزيمة على أن يسير في الحياة وفق منهج الله لدرجة تشابه مخلوقات الله غير المختارة. فالحج يعمق الإيمان بطريقة مكثفة، حين يرسخ نزعة التسليم الذي يجسد لب الإيمان وجوهره، ذلك أن عقلنة الإيمان في كل مسألة جزئية من شأنه إضعاف الإيمان.

دعونا نتتبع رحلة الحج من بدايتها؛ لننظر فيما يمكن أن نفهم من دلالاتها العظمى، غير ما هو معروف من تحقيق العبودية لله والمتابعة لنبيه وتحصيل المنافع:

الإحرام: فعندما يلبس الإنسان ثياب الإحرام التي تكاد تقتصر على ما يستر عورته، وما قبح من جسده يعلن تخليه عن أحد أهم ما يميزه عن مخلوقات الله الأخرى التي لم تعرف ثقافة الملبس، فلا يوجد في مخلوقات الله الأخرى من يعرف أخلاقيات الملابس أو التزين، لا من الجمادات ولا من النبات أو الحيوانات، ويؤيد هذا آية الأعراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾. فعند الإحرام يعلن الإنسان عن تلبيته نداء الله ورغبته في التماهي إلى حد كبير مع مخلوقات الله الأخرى، ويعزز هذا الشعور أنه يحظر عليه التعرض لصيد البر أو عضد الأشجار، ولا يمس طيباً، ولا يزين شعره، فيعلن السلام العام مع كائنات الله، في تلبية نداء ربه وحضوره إلى بيته الحرام الذي اختاره الرب ليكون قبلة للمؤمنين.

الطواف: لو تأملت مخلوقات الله صغيرها وكبيرها، الأجرام السماوية، وما داخل النواة، ستجد أنها كلها تطوف حول محور معين، فكواكب المجموعة الشمسية تدور بانتظام حول الشمس، والشمس وكواكبها تدور حول مجرة أخرى، وهكذا.

عندما نطوف حول الكعبة، فكأننا نشابه بطاعتنا للرب -عز وجل- المخلوقات غير المختارة في أدائها لواجباتها وانصياعها التام لخالقها -عز وجل-، ومما يضاعف هذا الإحساس لباس الإحرام والتخلي عمّا يميزنا بوصفنا بشراً من ملابس وأغطية الرأس.

ويثبت الدعاء الذي نستفتح به طوافنا، هذه المعاني العظيمة، والذي ورد عن رسول الله ﷺ وصححه بعض العلماء: ((**اللهم، إيماناً بك ووفاءً بعهدك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ**)).

ومسح الحجر الأسود وتقبيله في أثناء الطواف يشبه المبايعة على التسليم والطاعة.

السعي: وإذا أردنا أن نكمل فهم هذه التكاليف، فنقول: بعد أن يطوف الإنسان، ويعلن عمليًّا التزامه بطاعة ربه التزاماً يشابه طاعة غير المختار من المخلوقات ينتقل إلى السعي بين الصفا والمروة، وهو في نظري شعيرة ترمز إلى الكفاح لتحصيل ضرورات الحيـاة، حيـث يمثل الماء ركن الحياة الأول والسـعي بين الصفا والمـروة يفسر على أنه متابعـة لهاجـر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم إسـماعيل عليه السلام في أثنـاء بحثها عن الماء لهـا ولطفلها، وهـو حركة ترددية، وليسـت دائرية كما في الطـواف. ويمكن أن يفهم، وكأنه الركن الثاني للحياة البشرية، فهو سـعي لتحصيل ضروريات الحياة، ففيه كفاح وسـعي وجهد، وجاء أيضاً طلباً للماء الذي جعل منه الله -عز وجل- كل شيء حي، وعندما تسمح ظروف الحياة يركض الإنسان ركضاً (كما فعلت هاجر في بطن الوادي بين العلمين الأخضرين الآن) لاحظ هنا أن السـعي لا يشـترط له الطهارة؛ ربما لأنه يرمز إلى العمل الدنيوي.

وتذكر أن المسلم مأمور بأن يقف بين كل شوطين على الصفاء والمروة، وينظر إلى الكعبة، ويدعو، ماذا يمكن أن تفهم من هذا؟

التأكيـد على ضرورة الالتزام بمنهج الله -عزوجل- في تحصيل ضرورات الحياة وألّا يلهيك السعي في تحقيق منافعك عن ذكر الله عزوجل.

الحلـق أو التقصير: وتكتمل الصورة بشـكل رمـزي لا نظير له، عندما نفرغ من السـعي (ننجح في تحقيق المطلوب) فإننا نحلق رؤوسـنا تعبيراً عن التواضع، إن نظرة تأملية إلى شـخص طأطأ الرأس لحلاق تشي بكثير من الاعتراف بالمساواة والتواضع.

أي معانٍ عظيمة في الحج والعمرة؟!

إن الطواف والسـعي والحلق تختصر رحلة الإنسـان الظافرة (رحلة الفلاح) في هـذه الدنيـا الفانيـة، لاحظ أن بيـت الله (الكعبة) الـذي بـوأه الله لإبراهيم عليه السلام هو

في بعدي العرض والطول، وهو بذلك خارج الإرادة البشرية، أما البناء الذي رفعه (البعد الثالث) إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فهو داخل في التكليف التزاماً وفسقاً، وقد يتعرض عبر تاريخ البشر للهدم أو التصدع.

الرقم ٧: يلاحظ استخدام رقم سبعة في الطواف والسعي، وهذا الرقم ومضاعفاته يرمز للكثرة والاستمرار، تدبر قول الله -عز وجل-: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

وكان الرسول ﷺ يقول: (**لوكنت أعلم أن لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر الله لهم لاستغفرت لهم**) ما يدل على أن استخدام ٧/ ٧٠/ ٧٠٠ في القرآن الكريم هو دليل على الكثرة غير المحدودة، أو كما يعبر عنها في الرياضيات باللانهائي (∞).

أثار الرقم ٧ تساؤلات عدّة، فهو رقم تتفاءل به شعوب الأرض وفي دين الإسلام يتكرر الرقم ٧ في أشواط الطواف والسعي ورمي الجمار، وفي كثير من الأذكار، وأيام الأسبوع سبعة والسماوات سبع والأراضون سبع، وفي القرآن وردت سبعة ومضاعفاتها:

﴿...إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾.

﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾.

تأملات

قد يكون الرقم سبعة رمزاً على الاستمرار، وليس المقصود العدد نفسه.

قارن ما يأتي: في الصلاة تتجلى أبهى صور الإنسانية وأرقاها، وأعظم تمايزها عن بقية مخلوقات الله في الملبس «الزينة» والنظام «الاصطفاف» والترفع عن حركات الحيوانات.

وفي الحج يؤمر المؤمن بالتخلي عما يميزه عن بقية مخلوقات الله، ويتماهى معها في التخفف من الملبس والدوران أو الطواف حول شيء ثابت ومسح الجمادات وتقبيلها، وما إلى ذلك، وكأنه يتخلى عن النعمة؛ ليعيش مع المنعم، وبذلك تتحقق عبودية الإنسان لربه في جانبه الإنساني وجانبه الحيواني.

الحضارة والثقافة:

يحاول الدكتور علي عزت بيجوفيتش في مشروعه الفكري الكبير (الإسلام بين الشرق والغرب) أن يضع حداً فاصلاً بين الثقافة والحضارة، وبحسب الدكتور علي عزت، فالثقافة تبدأ بتمهيد سماوي، ويدخل فيها الدين والفن والأخلاق والفلسفة أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد أو التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة، ويستمر الدكتور علي عزت قائلاً:

«الثقافة هي تأثير الدين في الإنسان، أو تأثير الإنسان في نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء في الطبيعة أو العالم الخارجي».

ويمتلئ كتاب الدكتور علي عزت (الإسلام بين الشرق والغرب) بالأمثلة التي توضح الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة، ويخلص إلى أن الثقافة موجهة للإنسان في حين الحضارة موجهة للمجتمع.

وكما يعلم أي متتبع لمشروع الدكتور علي عزت -الذي أثار كثيراً من ردود الأفعال في أوروبا وغيرها، وحصل بموجبه على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام عام ١٤١٣هـ- أن محور فكرة المشروع تدور حول ثنائية القطب في الإسلام، بين الثقافة والحضارة، وتعدّ الصلاة أكمل تصوير لما يمكن أن يطلق عليه وحدة ثنائية

القطب في الإسلام، ففي الأديان الأخرى المجردة تؤدى الصلاة دون وضوء، بل مع وجود ما يسمونه القذارة المقدسة، أما في الدين الإسلامي فالصلاة ثقافة باتصال الإنسان بربه وحضارة بتطهره ونظافته، وهكذا يمكن أن نقول في عبادات الإسلام الأخرى.

وقد لاحظت في أثناء قراءتي للقرآن الكريم أن الخطاب في شأن الحج يأتي باستعمال كلمة الناس على صيغ عدة:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

ويضاف إلى ذلك بعض الآثار في السنة النبوية، كقوله ﷺ: (**الحج يوم يحج الناس...**).

وإذا سرنا مع تحليل الدكتور علي عزت بيجوفيتش، فإن الثقافة تتوجه للإنسان فرداً بالدرجة الأولى، أما الحضارة فهي تتوجه للمجتمع، فهل يمكن أن نفهم، أن الصلاة فعل ثقافي بالدرجة الأولى والحج فعل حضاري؟

ويسند هذا الاستنتاج إمكانية أداء الصلاة بشكل منفرد، أما في الحج فلا معنى له إلا مع الناس.

obeikandl.com

٨
الذكر
برمجة ذكية للإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الذكر .. برمجة ذكية للإيمان

((إذا شاهدت في إخلاصك الإخلاص، فقد احتاج إخلاصك إلى إخلاص)).

حكمة صوفية

شاع في نهاية القرن العشرين في كتب تطوير الذات، وبخاصة بحوث المعالجين النفسيين استعمال ما يطلقون عليه التوكيدات affirmations، ومهمتها الأساس تصحيح اعتقاد الإنسان عن نفسه، وهي تنبع من مسلمة مهمة لدى علماء النفس تقول: إن ما يشعر به الإنسان هو ما يفكر فيه، ومن ثم فإن أمكن برمجة عقله الباطن بأفكار إيجابية، فإنه سيشعر بشكل إيجابي، وبحسب عشرات الكتب التي قرأتها، فإن الإنسان إذا واظب على قراءة توكيد معين، مثل: (أنا واثق من نفسي وقدراتي) وكرر هذه العبارة كل صباح ومساء عدداً كبيراً من المرات، فإنه يصبح بالفعل واثقاً من نفسه وقدراته. ويفسرون ذلك بأن العقل الباطن الذي يتولى إدارة مشاعر الإنسان إلى حد كبير (بحسب زعمهم) يتبنى هذا التفكير الذي يمليه التوكيد السابق، ويبدأ الإنسان فعلاً يشعر بالثقة بنفسه وقدراته. ويؤكدون أنه كلما زاد تكرار العبارة زاد رسوخها بشرط أن تكون عبارة إيجابية بمعنى أنك لا تقول: (أنا لا أشك في قدراتي)، بل تقول: (أنا أثق بقدراتي)، لأنه بحسب رأيهم، فإن العقل الباطن يدرك الصور فقط، ويتعرف إليها، ولا يقرأ العبارات، ومن ثم فالنفي ليس له معنى.

وكما يعلم معظم من يقرأ في علم النفس أن العقل الباطن بوصفه نظرية لم يتم التحقق منها بشكل قاطع، ولكن تبنيها يساعد على فهم كثير من أسرار النفس الإنسانية، ومن ثم فمن المفيد الإبقاء عليها، وتفعيلها بشكل ذكي في محيط النفس الإنسانية.

وإذا كان من المعروف أن أول من افترض وجود العقل الباطن هو «سيجموند

حتى في الصلاة نسبح ربنا -عز وجل- في سجودنا، ثم نستغفره في الجلسة بين السجدتين، هل ثمة حكمة؟

دعونا على سبيل المثال نحاول التعرف إلى التسبيح والاستغفار. التسبيح في أصله اللغوي هو (س ب ح) بمعنى(نزه) ومن ثم فتسبيح الرب سبحانه هو تنزيهه عن النقائص وتمجيده بالكمال المطلق.

وقد جاء في القرآن بألفاظ عدة:

سبحان - سَبَّح - يسبِّح - سَبِّح.

وقد ورد بهذا الترتيب نفسه أيضاً في القرآن، فسبحان بمعنى أن الله سبحانه منزه قبل أن يوجد من ينزهه.

وسَبَّح تعني أنه مضت سنة المخلوقات على التسبيح، ويُسبِّح تعني أن مخلوقات الله ما زالت تُسبِّح.

وسَبِّح إذاً أمر إلهي لمحمد ﷺ ولمن اتبعه بأن يسبحوا، فالترتيب منطقي جداً.

الاستغفار أصله (غ ف ر) ومعناه لغويًّا: الستر والتغطية، ومن ذلك كما في لسان العرب غفر الله ذنوبه أي سترها. ويفيد في المصطلح محو الذنوب.

وقد لفت نظري تعريف للمغفرة أورده الدكتور جون جري مؤلف كتاب: (كيف تحصل على ما تريد وتحب ما لديك) وهو أيضاً مؤلف الكتاب الشهير (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) يقول الدكتور جري: الغفران هو التخلص من نزعتنا لتحميل الآخرين مرورنا بالأزمات في هذا العالم.

هل من سر خلف ارتباط التسبيح بالاستغفار في حياة المؤمن؟

obeikandl.com

لنأخذ المثال الآتي:

تصور أنك تبني في منزلك مظلة لسيارتك مجاورة لمنزل جارك، وفي أثناء العمل مر عليك الجار وطلب إليك أن تتنبه إلى تثبيت الحديد في أثناء الإنشاء احتياطاً لأي عاصفة محتملة. لم تهتم بما طلبه الجار، وهبت عاصفة في المساء، وسقط جسر من الحديد على منزل جارك، وهشم سيارة الجار، ما فرصتك في أن يسامحك الجار ماديًّا ومعنويًّا؟ الإجابة تعتمد بشكل كبير على حالة الجار المادية والنفسية.

إذا كانت السيارة مشتراة بالتقسيط، وتشكل نسبة كبيرة من دخله الشهري، وليس لديه رصيد يسمح بشراء سيارة أخرى، ففرصتك في المغفرة أقل.

إذا كان الجار صعب المراسِ وقاسيًّا، ففرصتك في التسامح أقل وأقل.

أما إن كان الجار غنيًّا جدًّا، يملك ثروات هائلة وكريماً جداً وودوداً لم يؤثر الحادث في حياته في نفسه أو أولاده، فإن فرصتك هنا في التسامح والمغفرة شبه مضمونة.

ولله -عز وجل- المثل الأعلى، فعندما نقول: «سبحانه» ننزه الرب عن الاحتياج إلى أي مخلوق أو الشح أو البخل وخزانته لا تنفد، ولا تنقصها الذنوب أو المعاصي إذاً من المناسب جدًّا للعبد المذنب أن يسبح الرب -عز وجل- ويستغفر، ولسان حاله يقول: يا من لا تضره معصيتي، ولا تنفعه طاعتي، ولا ينقص من ملكه شيء بسببي، يا رحيم، يا ودود، يا قريب، يا مجيب، اغفر ذنوبي، وقريباً من هذا المعنى أورد ابن الأثير في النهاية: (التسبيح فيه نفي النقائص والمعايب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب تعالى وتنزيهه عن العيوب والنقائص مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى الله تعالى وإلى ستره ووقايته وغفرانه).

وقدوتنا ﷺ كان يتمثل القرآن في هذا، فيقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم، اغفر لي.

تأمل أيضاً اقتران التسبيح بالحمد، فأي نعمة أعظم من كمال الله -عز وجل- وغناه عن مخلوقاته وعن الصاحبة والولد وعدم حاجته سبحانه لولد ولا شريك ولا ولي.

تخيل حال الكون وسكانه لو أن القيوم عليه له شركاء أو ولد أو أولياء!

وهل أفسد الأمم منذ القدم إلا أن القائمين على أمورها ذوو صاحبة وولد ولهم شركاء وأولياء؟!

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

تأمل:

«**سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**» استفراغ لكل ما يمكن من وحدات القياس.

عدد خلقه: عدد.

زنة عرشه: وزن.

مداد كلماته: مساحة.

أما الرضا فهو غير قابل للقياس.

«لاحول ولاقوة إلا بالله».

ألا يثير انتباهنا في هذا الذكر العظيم ارتباط الحول (التحول من حال إلى حال) بالقوة. لنتذكر قانون الفيزياء الراسخ الذي يشترط وجود قوة لأي تحول للمادة.

الدعاء:

ما الوظيفة الحقيقة المنوطة بالدعاء، والمقصود هنا دعاء الطلب، وليس دعاء الثناء، خلق الله الإنسان، وسخر له ما في الأرض أو بشكل أدق كما ورد في الحديث القدسي:

obeikandl.com

«خلقتك من أجلي وخلقت الكون من أجلك، فلا تنشغل بما خلق لك عما خلقت له».

تنقسم الظروف المحيطة بالإنسان إلى قسمين رئيسين:

١. قسم يقع تحت إرادته وفي مكنته.

٢. قسم يخرج من دائرة إرادته وإمكاناته.

وإذا تدبرنا سير الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ، يبدو بجلاء أنهم لايضعون الدعاء في غير موضعه، فموضع الدعاء يتأكد من وجهة نظرنا في القسم الثاني، وهو الظروف والأمور التي ليست في مكنة الإنسان، وأوضح مثال على ذلك أحداث غزوة بدر، فقد استنفد الرسول ﷺ كل الوسائل المتاحة له بوصفه رسولاً وقائداً ومحارباً، ويتضح من مسار المعركة أن الدعاء جاء بعد استكمال كل الاستعدادات، بل قبيل المواجهة الحاسمة بلحظات، وتدل سير الأنبياء عليهم السلام على سيرة أو سلوك مشابه، ويأتي الدعاء في المسائل المقدور عليها من قبل الإنسان لطلب التسديد والتوفيق وإصابة ما يقع في دوائر النفع الحقيقي للإنسان في دنياه وآخرته.

حاول أخي القارئ، أن تتذكر الأدعية التي تضج بها مساجدنا في رمضان، فستجد أن الدعاء قد حمل ما لا يحتمل، ووضع في غير موضعه، بل قد يقع بعض الدعاة في عبارات تشي بعقائد أهل الجبر، وهو لا يشعر.

كيف نميز بين ما هو في مكنتنا، وما ليس في إمكاننا؟ لا شك في أن هذا أمر ليس باليسير، غير أنه يجب أن يستقر في أذهاننا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن استنفاد الأسباب واجب على القادرين؛ لكي يؤدي الدعاء دوره.

ويبدو أن الدعاء في الأحوال الاعتيادية، وليس المعجزات الخاصة لا ينقل الإنسان من دائرة غير الممكن إلى دائرة الإمكان، ما الذي يعنيه هذا القول؟ تصور أن إنساناً يرغب في إنجاب ذرية، فهل تتوقع له استجابة لو ظل يدعو بالليل والنهار وهو غير متزوج، الزواج مقدمة أساس لحصول الذرية، وهو الذي ينقل الداعي إلى دائرة الممكن، وعلى هذا يمكن قياس الحالات الأخرى.

يؤلمني جدًّا عندما أسمع أحد أئمة الحرم المكي، وهو يردد في العشر الأواخر من رمضان "اللهم، حرر المسجد الأقصى"، فشعر بخجل عظيم من الرب تبارك وتعالى، حتى إنني لا أؤمن على هذه الدعوة، فهي عندي شديدة الشبه بما يحكى عن اليهود عندما قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

والحديث عن الدعاء والمساجد لا بد أن يجرنا إلى إسراف بعض أئمة المساجد في تكلف الأسجاع، حتى لو أخرج الدعاء عن مقصده، بل ربما أوقعت الداعي في نقيض مطلوبه.

تأمل أخي القارئ، في بيت الله الحرام، وفي العشر الأواخر من رمضان، وفي دعاء ختم كتاب الله، يدعو إمام الحرم المكي بقوله: «اللهم، ألبسنا به الحلل وأسكنا به الظلل» يقصد القرآن الكريم، والمعلوم عند أي متدبر للقرآن الكريم أن الظلل والظلة تأتي دوماً في سياق العذاب والعقاب والحساب والتخويف، وقد وردت غير مرة:

كقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾. ولا شك في أن نية الإمام حسنة، ولربما كان يقصد الظلال، ولعل برمجته الذهنية المتجهة نحو الأسجاع قد أفقدته الإحساس بالمعاني، وكثيراً ما تسمع المصلين يؤمنون على هذه الدعوة أو غيرها، ويبكون دون أن يفقهوا معناها، وإنما يأخذهم النحيب والبكاء على الألحان والأسجاع، وقد مر بهم منذ لحظات كلام الرب -عزوجل- الذي لو أنزل على جبل لخشع، وتصدع، ولا يحرك لهم ساكناً.

٩ زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

يمر قارئ القرآن الكريم، بمجموعة من الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى، سيفصل في اختلافات الناس بشكل قطعي ليس في هذه الحياة الدنيا، وإنما بحسب النص القرآني القاطع يوم القيامة، لنتدبر الآيات الآتية:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.
- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أما في هذه الحياة الدنيا فالأمر الإلهي واضح، وهو استباق الخيرات، بين مختلفي العقائد، وهو ما نصت عليه آيتا البقرة والمائدة، بل ختمت آية المائدة بأننا سنرجع إلى الله، ثم ينبئنا عما اختلفنا فيه.

- ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.
- ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

لا بد أن كل من تربى على عقيدة وتصور للإيمان سيكون في الغالب شديد الالتصاق به والوثوق فيه، ومن ثم لا بد من أن ندرك أن من غير المفيد أن نتشاجر حول اختلاف تصوراتنا وعقائدنا، حيث إن هذا لن يؤدي إلى الفصل، فالفصل بين هذه العقائد سيتم يوم القيامة من رب لا يخفى عليه شيء، وهذا لايعني أن الإنسان الذي اجتهد في بناء إيمانه وتحقيق عقيدة وتصور يثق بها أن يتخلى عن الدفاع عنها أو أن يترك الدعوة إليها، بل هذا الأمر مندوب، غير أن المطلوب ألا يتعدى هذا الجهد إلى بخع النفس أو إهلاكها، أو قتال الناس وحرمانهم حقوقهم، ويؤيد ذلك أن عقول الناس لا تستطيع الوصول إلى فصل في العقائد، مهما بذلت، ومهما تقاربت هذه العقائد، فلو اجتمع أشعري وسلفي، وكلاهما تحت مظلة ما نسميه أهل السنة والجماعة، وأمضيا سنين في الحوار حول الصفات لخرج كل واحد منهما أشد تمسكاً وقناعة برأيه، ومن ثم فالفصل في العقائد تكفل به الخبير العليم، وأجّله إلى يوم القيامة، إذاً ما الذي نعمله الآن؟ الجواب نتسابق بالخيرات، وهنا ملحظ في غاية الأهمية، وهو اتفاق عقول البشر على هذه الخيرات، فكل الشرائع السماوية تدعو إلى الصدق، وتحرم الكذب، وتدعو إلى العفة، وتحريم الزنا، وتدعو إلى البر، وتنهي عن العدوان، وهكذا إذاً، فمن يسرف في الجدال حول سلامة معتقده، وخطأ معتقد الآخرين، ويهمل استباق الخيرات، فقد نقل الأمر الإلهي من وقته إلى وقت آخر.

وكذلك من يَدِلّ على الناس بسلامة معتقداته، ويستهين بالأعمال الصالحة التي يقوم بها الآخرون، ويجزم أنها ستكون هباءً منثوراً. لا بد من أن قراءة متأنية متدبرة للذكر الحكيم ستجعلنا نعيد النظر في كثير من مسلماتنا حول ما نسميه سلامة المعتقد.

وهناك من يرى أن كل من أفرغ وسعه وجهده، وأعمل فكره، وما أعطاه الله من فهم، في الوصول إلى عقيدة ما، واعتنقها دون مكابرة، أو تحقيقاً لمصلحة مرجوة، فهو معذور مأجور، وذاك نهج وسطي يقرب العقول والقلوب، ويحشد الموارد والجهود.